رواية

هيباتيا تعود

مارا أحمد

كتاب طيوف سلسلة من إصدارات يسطرون

رئيس مجلس الإدارة
عماد سالم
الإشراف الأدبي
السيد حسن
المدير التنفيذي
هناء أمين
مدير الإنتاج
مصطفى عماد

الطبعة الأولى
الكتاب : هيباتيا تعود
المؤلفة : مارا أحمد
التصميم والإخراج : سلسلة طيوف
المقاس : ١٤× ٢٠
رقم الإيداع : ٥٣٧٩ / ٢٠٢١م
الترقيم الدولى :978 - 977 - 993 - 089 -3

العنوان : ٢٩٨ شارع الملك فيصل - محطة ضياء
Email : ketabtoyof@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : كتاب طيوف
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

حافظ على حقك في التفكير

فحتى التفكـــــير الخـــــاطئ

أفضل من ألا تفكر على الإطلاق

"هيباتيا ثيون"

الإهداء

إلى ..

كل مَن حمل بيده شعلة التغيير إلى الأفضل.

كل من نهض بالروح لترتقي، وبالعقل ليبتكر.

إلى من صدق وعده ومات دون الحق..

إلى .. الإنسان

مارا

"الحياة عبارة عن حالة من التكشف،

وكلما سافرنا، ازدادت الحقيقة التي يمكننا فهمها.

من أجل فهم الأشياء الموجودة أمامنا،

الأفضل .. أن نفهم تلك التي تكمن وراءها".

هيباتيا

١

"التمثيل ليس كما لعبة النرد، لعبة حظ ؛ استهلاكاً للوقت، لقد أطلق عليه التشخيص قديماً، لما يتضمنه من قدرة على تقمص الشخصية، والعيش بداخلها، للكشف عما علق بها من أمراض وعقد بل وأسرار. الممثل القدير من يتمكن من قلب الشخصية باطنها خارجها كما نفعل في الجورب.

أداؤك، وتعبيرات وجهك، وإيماءات جسدك، يجب أن تكون كل ذرة منك هي أدواتك لإيصال تلك الأسرار للجمهور، ربما يكون صمتك؛ إن أتقنته أصدق وسيلة. التمثيل هو عصارة عقولنا، جهد غير عادي، والرقصات التي نؤديها ليست مسخرة وتسلية، إنها صلب المشهد، بل إنها حوار آخر نبعث به للمتلقي، ولكن بالجسد بالإيماءات. يجب أن يكون جسدك قادراً على التحدث: ساقاك، ذراعاك ، رأسك، وعيناك. يجب أن تكون حركتكم معاً متناسقة، وكأنها تِؤدي (ديالوجاً) صامتاً كما الجسد الواحد، ويجب أن أرى في عيونكم ونظراتكم مع شريك الرقصة كل المشاعر بشكل يصدقه الجمهور: الحب ،اللهفة، الاشتياق، الرعب، الدهشة،

لكن حتى الآن لم أر ذلك الهارموني في رقصتكم ... سنعيد الرقصة مرة أخرى، تفضلوا" (يصفق بيديه): ليستعد الجميع ..لن.....

تقاطعه أحدى الممثلات وهي في حالة من الإرهاق: يا مستر نحن تعبنا، مر علينا أكثر من ساعتين ونحن نتدرب على الرقصة، ولم يعجبك أداؤنا، ما الخطأ؟

- أنت معاقبة لسببين: الأول :أنك قاطعتني وأنا أتحدث، مما كان سبباً في تشتيت أفكاري، الثاني : لأنك تجرأت وقلت إنك تعبتِ.

صاح بصوت أرعب كل الحاضرين من ممثلين وعمال مسرح، ثم واصل حديثه:

- من يعمل مع مهتدي فليتحمل ولا يناقش ولا يشتكي، من لا يعرف من هو مهتدي ليسأل عني، ليشاهد أعمالي، الفنانة التي أنأى بنفسي أن أسميها فنانة، التي اعترضت كلماتي ؛مفصولة من الفرقة، لاعمل لها معي، فهي لم تحترم قوانين و طقوس مسرحي ولافرقتي فرقة "إنسان".

حاولت الفتاة الاعتذار إلا أنه صمم على طردها من المسرح: تفضلي أستاذة.

وقف صامتاً، منحني الرأس، مشيراً بذراعه الممدودة، وبيده المفتوحة إلى الكالوس بلا اي كلمات لكي تخرج، وقد خيم على الجميع الصمت. تخرج الفتاة مطأطئة الرأس يغطيها الخجل.

يرفع مهتدى صوته آمراً الجميع : لنواصل "البروفة" سكوت، موسيقى، واحد، اثنان، ثلاثة، حركة.

***

٢

"لم أكن أبدا نسخاً عن أصل، لطالما خططت سطور حياتي بما يتواءم مع ما آمنت به، أعشق الطبيعة كما أبدعتها يد الخالق، بألوانها المتناسقة، بتنوع موجوداتها، لم أرفض اختلاف الآخر، بل أحترمه، وأصدق أنه ينسجم مع إبداع الصانع، فما الروعة إذا كنا نسخاً بذات الملامح واللغة والفكر؟!

أشعر بامتزاجي مع الطبيعة حين أتنفس هواءها وأتغذى وأرتدي من طرح أرضها.

لا يطيق جسدي أن يلمسه حرير صناعي، أو (بوليستر)، أو أي منتج تدخلت فيه يد الإنسان بالتشويه، وإفساد أطفال الأرض الأنقياء من أي هندسة وراثية.

نعم، أطفال الأرض، فأنا أرى الطبيعة امرأة تنجب لنا الزرع الأخضر، والهواء النقي، والحيوانات الجميلة، ونحن نتطفل عليها، بل نشوهها.

حين أضع ردائي القطني، أشعر أن الطبيعة تحتضنني، أمتزج بها، وتذوب فيَّ ، وأرى في نفسي ابنة لتلك الطبيعة، أحمل تنوعاتها وتناقضاتها، جمالها الآخاذ وقبحها أحيانا.

أجد فيها الملاذ والأصل، هربت إليها بعيداً عن يد تعمدت أن توجعني، وألسنة لاتهنأ إلا إن صبت جام لعناتها على حريتي.

تخليت عن بروتوكلات حمقاء، كبلت عقلي، وكادت أن تخنق روحي، تنازلت عن عرش أسرتي وتاجها الثمين بحثاً عن السلام والجمال والبساطة والنقاء، أتمنى أن أعتزل المدينة والحضر، ويعتزلني الأرق وتلصص الآخر.

ليتني أحيا في حضن الهواء، ولمسات رمال الشاطئ، أو في الصحاري، فرغم توحشها أراها أكثر تفهماً ورقياً عن الهمجية التي يتجمل بها الكثيرون.

ربما سأجد يوماً أرضاً أزرع بها حلمي، قد أجد ذات حلم يداً بتولاً تحتضن يدي، أنفاساً تتنفس هوائي، وسادة من ورقات الشجر تتوسدها رأسي ورأسه.

كذبت حين أخبرت ابن عمي أني أرفض الزواج، أعتزله.

نعم أرفضه إذا كان هو الشريك الذي سيحتضن يدي يوم عرسي.

لا لم يكن أبدا هو من رسمت ملامحه في أحلامي، فارس أحلامي ورفيق رحلتي في الحياة، لم أصل إلى

ملامحه "الفيزيقية" الجسدية – بعد كدليل يوجهني إليه، ولكن كل ما أعرفه عنه أنه قادر على أن يقفز بي إلى الحياة، ينتشلني من تقوقعي في مرحلة الحلم، يتحمل ازدواجيتي التي فرضت علي، يتقبل جنوني وتمردي، ينقلني إلى السلام.

ترى!! هل ينتظرني هناك؟ حيث البداية الجديدة، حيث الطبيعة حرة من سلاسل الثراء وأسوار القصور؟

سأحزم في حقيبتي - بين ملابسي المرتبة - أفكاري ومشاعري المبعثرة، أحلامي المزدحمة بوجهه المطموسة ملامحه، وصوته الذي يتراقص على أحباله الصوتية صامتاً، وبين ثنايا صدري تلك القلادة التي تقسمني وتوحدني في جدال لا يتوقف.

أريد أن أبتعد عن جلسات العائلة الدبلوماسية المملة، والتي فقدت إثارتها في محاولة لسحب أقدامي وعقلي ناحية دمائهم الزرقاء، التي لا يجب أن تتلوث بدماء رجل لا يحمل اسمها او جيناتها أو معتقدها.."

بدا من نظراتها المترددة الزائغة أنها خائفة، وقد تكون مرتعبة من مراقبة شخص ما لها .. وقفت أمام باب الكنيسة ترتدي فستاناً فضفاضاً سكري اللون، طويلاً يلامس كاحلها، تضع على رأسها وشاحاً بنياً، لفت به

شعرها كما العمامة التي يضعها رجال الصعيد، وقد تركت باقي شعرها منسدلاً على ظهرها الذي يتدرج لونه بين الكستنائي والأحمر، تنتعل في قدميها صندلاً بسيطاً بلا كعب، كما الخف الذي يرتديه الرجل في زمن مصر القديمة، تزينه بعض الأحجار باللون الأزرق والتركواز، أطلقت أصابع قدميها -المطلاه بالحنة السوداء - في حرية تداعبها حرارة الشمس والهواء الذي يضن بنسماته في هذا الفصل من السنة.

تضع على كتفها حقيبة طويلة من الجينز ، تمتد حتى ساقيها، ، مزركشة برسوم عربية بألوان قوس قزح.

ذات عيون واسعة، زيتية اللون في ضوء الشمس، وتتحول إلى اللون العسلي عند غيابها، ذات رموش طويلة سوداء، تركت حاجبيها كما خطتهما الطبيعة كثيفين طويلين، يكادان يلتحمان عند الأنف، مما منحها جمالاً طبيعياً أقرب إلى جمال الآلهة الرومانية.

تضع في أذنيها قرطاً ذا طابع ريفي قديم على شكل مخرطة.

أمسكت في يديها بنظارة شمسية سوداء، ما لبثت أن وضعتها على عينيها هرباً من الشمس وشئ آخر، أخذت تتلفت يميناً ويساراً، وكأنها تفتش عن شخص ما، وقد

بدا على وجهها الحزن .. كانت في انتظار سيارة أجرة، وإذا بيد تشدها بعنف، كادت أن تسقطها أرضاً، لولا أن تلك اليد نفسها قد أمسكت بها، ورفعتها، مما أنقذها من سقوط مؤكد.

رفعت رأسها وبدا على ملامحها الخوف لتنهره:

- اترك يدي .. ماذا تفعل هنا؟

- بل أنت التي يجب أن تُسأل: ماذا تفعلين هنا؟

أجابت في تلعثم: كنت في عرس صديقة.

- كاذبة، لقد سألت قبل أن تخرجي إن كان هناك أية أعراس، فقيل لي إنها صلاة فقط.

- لا أسمح لك أن تتهمني بالكذب، الكنيسة بها عدة قاعات، وكان الإكليل في إحدى القاعات المنزوية، فلم يعرف به الكثيرون. أيا كان سبب وجودي فهو ليس من شأنك، أنا حرة.

سحبها من يديها، صاح فيها: لنبتعد عن هذا المكان

- لولا أننا أمام مكان مقدس لكان لي معك تصرف آخر.

قالتها وهي تتلفت لتشاهد نظرات الناس الفضولية.

- أقسم بربي إن لم تعودي إلى رشدك لأقتلنك غير آسف.

شعرت بخطورة الموقف، وصدقه في تهديده لها، وتجنباً للفضائح طلبت منه في صوت منخفض أن يذهبا إلى مكان هادئ للتحاور.

ركبت السيارة معه كرهاً لتهرب من نظرات الناس وتجمعهم الذي أوشك.

***

٣

وصلت السيارة أمام كافيه بمكان يعمه الزحام والضوضاء، صعدت السلم لعلها تجد مكاناً هادئاً، حتى لايشاهدها الناس إن ارتفع الصوت، أو صدر عن ابن عمها فعل أهوج.

تجد طاولة في أحد الاركان البعيدة عن المكيف، فلم يستهو أحداً للجلوس به.

جلست، وأشارت له بيدها للجلوس، يأتي "الويتر" النادل بعد دقيقة من جلوسهما، ويعرض عليهما الإتيان بمروحة، فتقبل العرض، وتطلب منه كوبا من عصير الليمون بالنعناع له، وفنجاناً من الشاي الأخضر لها دون أن تسألة عن رغبته.

- أنت تعلم جيداً أن الزواج علاقة أبدية ذات رباط مقدس لا انفصام له، هكذا ورثنا عن آبائنا ، لذا يجب أن نفكر كثيراً قبل أن ندخل في تلك العلاقة، الزواج أيضا ليس علاقة بين رجل وامرأة فقط، فأنا سأكون أماً لأبنائك، وأنت ستكون أباً لهم، سيرثون اختلافاتنا وخلافاتنا.

- أعرف أنك لاترغبين في الزواج مني، وإياك أن تتصوري أنني متلهف على الزواج بك، أنا فقط أحقق وعداً قطعته لأبيك أن انتشلك من جنونك، يجب أن تكوني ممتنة لي، فلقد تحملت تخبطاتك لسنوات، ولن أتركك لتضلي نفسك، وتلحقي بالعائلة فضيحة ستؤثر علينا جميعاً، وعلى علاقاتنا وأعمالنا، أفيقي.

- اسمع، أنا حاولت أن أكون راقية في كلامي معك، وسمعت منك من الإهانات الكثير. احذر أن تتحدث معي بهذه الطريقة ثانية، وأنا أعفيك من الوعد الذي قطعته لأبي وأحررك من قيده، بالفعل أنا لا أليق بمثلك، ولا أنصحك أن تضحي وتتزوج بي، اختر فتاة جميلة تليق بك وبالأسرة الكريمة.

- لن أتقبل نصيحة من مختلة، ورثت الخلل عن أمها، ومن دراستها للفلسفة التي أعطبت مخها، ولن أسمح لك بأن تنحرفي، فأنت تحملين اسم العائلة وشرفها.

- هذا على فرض أني فاقدة الأهلية أو قاصر؟ !!

- العقل لاعلاقة له بالسن، بالفعل أنت فاقدة الأهلية. أعتذر لك، ما أخرجني عن لياقة الكلام غيرتي عليك وعلى ديني، أخبريني، ماذا حدث لنا؟ كنا صغاراً وبنينا حلمنا معا، لم أتصور أن تشاركني أحلامي فتاة غيرك،

شببت على أنك نصفي الآخر، والذي لن أكتمل إلا به، وأنت أيضا، إياك أن تخبريني أن كل ذلك كان وهماً.

- كنا صغاراً، علاء، ونضجنا، وكثيراً مانرى سذاجة تلك الأحلام، أو أنها لم تعد مناسبة لما صرنا عليه.

- هل تقصدين أنني لم أعد مناسباً لك؟

- لم أقصد ذلك، لكن أحلامي اختلفت، لم تعد قصة الزواج والحب هي شغلي الشاغل،هناك أولويات طرأت علي عقلي وفكري.

- ماهي تلك التغيرات؟ كنت أعتقد أن من يحب لا يكره.

- أنا لا أكرهك، ولكن لتمنحني مساحة مكانية وزمانية لأختبر مشاعري تجاهك، أنت لا تمنحني فرصة لأتنفس هواء يخلو من أنفاسك.. اتركني قليلاً.

- يبدو أنني بالفعل كنت ثقيلاً عليك، أنا لن أطاردك، سأدعك ونفسك، لن تريني بعد اليوم، لكن نصيحتي لك ابنة عمي: لا تضلي الطريق، لا تجعلي مشاعرك وحبك لأمك سبباً لتنزلق قدمك عن الطريق الصحيح، أما عن الزواج فأنا لن أجبرك على حياة لا تتمسكين بها مثلي.

- أنا لن أتزوج بك ولا بغيرك، لقد قررت أن أتفرغ لدراستي ولعملي، ولن أنجب أطفالاً في مجتمع فقد عقله، ادفع حسابك، وأنا سأدفع حسابي.

نادت على "الويتر" وقدمت له ورقة بخمسين جنيها

- هذا حساب القهوة والباقي لك، أما حساب العصير فهو من سيحاسب عليه .

(وهي تشير إليه بنظارتها الشمسية ثم ترتديها، وتنصرف مسرعة لتختفي بين الزحام خوفاً من ملاحقته لها).

***

٤

تركب المصعد، تنظر في المرآة المعلقة على الحائط المواجه لبابه، تتلاحق دموعها هطولاً لا تتمكن من إيقافها، تخرج منديلاً، تنظف به دموعها التي اختلطت بلون الماسكرا الأسود، والذي غطى وجهها، فبدا كما وجه مهرج باكٍ .

دخلت الشقة، وصفقت الباب خلفها، تخلع حذاءها وتلقي به بجوار الباب تجري إلى غرفة نومها، تلقي بنفسها فوق السرير، تترك الحرية لدموعها لتنطلق، لعلها تجد فيها الراحة.

تهدأ، وتلتفت إلى الصورة الموضوعة فوق (الكومود) المجاور للسرير، تمسك بها، كانت صورة لأمها ترتدي (تايورا) أسود، نحيفة، ذات شعر أشقر ناعم، تتخلله خصلات الشيب، ترتسم على وجهها الحزين بسمة غنية بالطيبة، وحول رقبتها سلسلة بسيطة معلق بها صليب صغير:

- لماذا يا أمي؟ هل كان حبك له يستحق كل هذه التضحية لتلقي بي في هذا العالم؟! لقد مزقتني ولا التئام لبعضي.

أخرجت من تحت ياقة الفستان قلادة من الفضة، في نهايتها صورة للعذراء تحتضن هلالاً، أمسكت بها متأملة فيها وحدثت نفسها:

- لقد خرجت من بيت أبي وأمي بحثاً عن الاستقلالية، وأملاً في أن أعيش حريتي، وأختار الشكل الذي يتناسب مع فكري وعقلي، فلقد ضقت بتلك الأذرع المقتحمة حياتي، والتي تحاول أن تدير المقود في اتجاه لا ترضى عنه روحي.

ماذا حدث لمشاعري نحو علاء؟ أين ذهب الشغف والشوق إليه؟

لماذا لم أعد أراه؟! لماذا يصيبني الغثيان كلما تذكرت لمسة شفاهي لشفتيه عند أول اعتراف بحبه لي وحبي له؟!!

هل تغيرت إلى هذا الحد؟! تغيرت وانقلبت مشاعري؟!! ما كنت أهواه تخليت عنه، وما كنت أرفضه صار من أولوياتي.

يبدو أن رحلة البحث عن ذاتي ستطول، ومقاومتي ستطول.

"شعرت بالنعاس، فوضعت رأسها على الوسادة ممسكة بالقلادة ونامت".

٥

لقد تمكنت من أن تنسلخ من ذلك الحريق، الذي أشعله الجهل وعمى التعصب والكراهية لكونها أنثى جميلة، ذات نفس حرة وعقل لا ينحني إلا للمنطق، للخير، للحق، خرجت لتضع جلدها الذي بدأ بالطيران من الأرض، الذي تساقط عليها حين جذبوها ليسلخوه عن جسدها، وصرخاتها لاتستريح في استغاثة تناشد إنسانيتهم، لتنتهي بطلب الموت الرحيم، جعلوا منها أمثولة لكل من عارض الإذعان والتسليم لهم بالألوهية، وممارسة التفكر والتحقق مما يدعونه من امتلاكهم لمفاتيح الجنة.

عادت لترتدي أناقتها، وتلملم رقبتها، لترتفع كما ناطحة سحاب، ولتجفف دموعها التي اختلطت بالتراب، لتصير طيناً اكتحلت به عيناها، تمسح عنها كل ماعلق بجمالها وبهاء طلتها، تهندم ملابسها المهترئة، الملطخة بالدم وبصماتهم المغتصبة لروحها، تنظف عن جسدها آثار أكفهم و لمساتهم المستذئبة، التي مزقت الجلد عن ذراعيها، لتعود محملة برسالة ترفعها أمام أعين جلاديها:

"أنا لا أموت، أنا قد منحت الخلود، ربما تستبيحون جسدي وأنوثتي التي كما الأرض خصيبة، لكن لا خلود للظلام، فالشمس تشرق لا محالة"

عادت لتمتطي عربتها ذات الحصانين، وتسرع بها أمام العامة صارخة بصوتها الذي كان كما الرعد، ونظراتها التي كانت برقاً أصاب جهلهم وهمجيتهم: إنه موعد إلقاء محاضرتي في الفلسفة عن أهم قيمة وهبت لي كإنسان وهي "العقل الحر"

أنا هيباتيا التي خلدها جهلكم وهمجيتكم، أعود وسأظل أعود من محرقتكم لأحقق رسالتي، ربما أعود هيباتيا، أو إنساناً باسم جديد وجسد جديد، لاتهم الأسماء، أنا سأبقى مادامت الأرض باقية في دورانها وفي مكانها بالمجرة، سأبقى ما دام مقدراً للإنسان أن يتزعم الحياة..

- ماذا لو عادت هيباتيا من الحريق وأدارت عقارب الزمن والقدر لتبقى هي وتحاكمهم؟
- هذه هي مسرحيتنا "هيباتيا تعود"
- لكن أين هي ؟ أريد هيباتيا، فتشت الإسكندرية عن فتاة تقوم بدورها لم أجد، كل الشخصيات وجدتها إلا هيباتيا.
- مهتدي! اسمح لي بالتحدث بصراحة، فأنت تعلم مكانتك عندي، أنت مبالغ في مواصفات بطلة المسرحية.
- لا يا حسام، هذه المسرحية ليست كأي عمل قمنا به من قبل، إنه نص كتبته سيدة غير عادية إنها دكتورة في الأدب، وقد وضعت به كل فكرها وعقيدتها، وهي أبدعت كتابة النص ودوري أن أبدع في إخراجه.

- لقد سمعت أن دليلة عادت إلى مصر وهي متفرغة بلا عمل، ما رأيك؟

- دليلة؟! هل تقصد دليلة التي أفكر بها؟ أم تقصد فنانة أخرى بنفس الاسم؟

يطلق قهقه أربكت حسام وأشعرته أنه تفوه باسم أثار غضب مهتدي..

- لن أرد عليك حسام بشكل يتناسب مع حمق الفكرة، ولن أسئ لهذا الاسم الذي ذكرته، رغم أنها تسئ لنفسها والوسط كله، لكن هذا ليس من شأني، فكل إنسان حر في اختياراته وقناعاته، لكن مهتدي لايمكن أن يذكر اسمه في جملة واحدة مع هذه الـ دليلة ..

أنا أفتش عن وجه جديد، يمنحني عجينة أستطيع أن أشكل منها هيباتيا، في شبابها، وأثناء جريمة حرقها، فتاة لم يسبق أن تشكل لدى الجمهور انطباع ما عنها، وجه بلفافته السوليفانية، لكن أين هي؟!

***

٦

فتحت باب الشرفة التي تطل على البحر، استنشقت هواءه المذاب فيه اليود، وكأنها تخزنه بصدرها، أو ترتوي منه، فلقد أصاب قلبها الجفاف منه، لقد غابت عن الإسكندرية أكثر من ست سنوات، مجرد ملامسة الهواء لوجهها وجسدها جعلها تشعر بالراحة والأمان وكأن للإسكندرية ذراعين يحتويانها.

"ما أجمل أن تلقي برأسك في حضن أمك بعد غربة طويلة، هنا أمي الكبرى الإسكندرية، أما أمي الحقيقية التي ألقت بي في هذا العالم فلقد خذلت الأحلام ونامت نومة أهل الكهف بلا بعث، وأغلقت دون العالم أي باب للعودة، أتخيلها وقد رفست جسدها ومعه جسدي لترتفع إلى هناك، حيث الصفاء الأزرق ..

تركتني ولكنها منحتني أبي، ذلك الرجل الذي وهبني عقله في علبة من القطيفة ومعه عشقه لي.

تستدير بوجهها وتتوجه صوب الفراش؛ لتلقي بنفسها فوقه وقد ارتسمت على وجها بسمة رضا وسعادة.

تدق ساعة الموبايل الثامنة صباحاً لتنهض مسرعة نحو المطبخ تجهز الإفطار وتدخل لتوقظ أباها.

- ثروت، انهض، لقد صحوت ومعدتي تزقزق.

وبعد قليل ستنبح: "ثروتي" انهض

- صباح الخير يا قلبي
- صباح الفل ثروتي،
- "تقبل جبينه وتمسكه من يده لتساعده على النهوض من السرير"
- لقد جهزت لك الحمام والفطور مولاي.

تنحني واضعة إحدى يديها خلف ظهرها والأخرى تمدها إليه كما جارية في خدم السلطان، يضحك ويغمرها بنظرته المطرزة بعشقه لها.

- يجلسان لتناول الفطور، ويتحاوران لتحكي له عما حدث لها أثناء إنهاء الإجراءات بالمطار، وكيف أنها التقت بفنانة مغمورة لم تكف عن الحديث عن أمجادها طوال الرحلة لتكمل ثرثرتها بالمطار.
- يضحك "ثروت" وهو في قمة السعادة مكتفياً بالإنصات إليها، فلقد عاش ست سنوات عارياً من حضنها، متجرداً من صوتها. كان في الظاهر راغباً في أن تستكمل دراستها بالخارج في جامعة عريقة، ولكن الواقع أنه أراد أن يبعدها عن مصر وعن مشكلاته مع أسرته التي صار كل هَم أفرادها الاستئثار به بعد موت زوجته، وها هو القدر قد أعادها إليه، كان يحدث نفسه موبخاً

لها: "كيف كنت أباً عاقاً لأتخلى عنها وأبعدها عني ببلد غريب حتى ولو كان السبب مستقبلها؟! كيف أحرم عيني من وجهها؟ كيف طاوعني قلبي أن أعيش سنوات ست دونها، هي ليست ابنتي فقط، بل أمي وأختي وابنتي، بل وعائلتي بأكملها".

- توجه بحديثه إليها:
- لن تضحكي علي بهذه الحكايات القصيرة، بعد الإفطار ستروين لي كل سنة على حِدة بتفاصيلها، بكل لحظة، وكل من مروا في حياتك من أشخاص، أعرف أنك كنت تقصين لي عبر الـ (اسكايب)، لكن أريد أن أتأكد أنه لم يفَتني أي موقف أو قصة.
- طبعا يا ثروتي، لكن هناك مشاوير هامة يجب أن أنهيها ثم أتفرغ لك تماماً، فأنا لن أبتعد عنك لحظة ثانية.
- تنهض وترفع الأطباق لتدخلها إلى المطبخ، ثم تدخل غرفتها لترتدي بنطالاً من الجينز وتي شيرت بنصف كم، خصلات شعرها الأسود الطويل في شكل ذيل الحصان، تلف رقبتها بإيشارب من القطن الملون، تضع حقيبة (الكروس) على كتفها، تخرج لتقبل وجهه..
- إلى أين ، هبة؟

"نعم هبة، فلقد كانت هبة منحتها لي السماء تعويضاً عن حبيبتي التي فارقت الحياة لتتركها لي أمانة ومنحة،

أعجب كيف انتقلت خصلات شعر أمها السوداء الناعمة إلى راسها، وكأنها تركته لها كإرث يذكرني بها كلما لامست كفي رأس هبة، وورثت عنها تمردها وخفة ظلها، وورثت عني عيني الزرقاوين، وطولي، ولكنها لا شك أجمل، فهي شابة أما أنا فأطلال خلفها الزمن والمآسي أنتظر رحلتي إلى حيث تقطن زوجتي".

- هناك إجراءات يجب أن أنتهي منها ولابد أن أقدم أوراق الدكتوراه إلى الجامعة.
- لماذا تقومين بذلك بنفسك؟ انتظري سأتصل بنصري المحامي ليقوم عنك بكل هذا الروتين.
- بابا، أحتاج أن أرى الإسكندرية وأمتزج بالزحام، بأهلها، أتشمم شوارعها، أريد أن أركب الحافلة ذات الدورين، أفتقد كل شارع وكل حي يا بابا.
- في حفظ الله
- لن أتأخر

تخرج وتغلق باب الشقة.

٧

- عز، انتظر أريدك في أمر هام
- نعم أمي، رجاء لا تطيلي فعندي لقاءات هامة ولا وقت عندي.
- بيتك أيضاً له حقوق وفي حاجة إلى اهتمامك وجزء من وقتك.
- تفضلي يا أمي ما الأمر؟
- ابنتك
- ماذا بها ابنتي؟!
- هل ستتركها هكذا تعيش مستقلة في شقة بعيداً عن رعايتك وعينيك؟!
- نحن تناقشنا في هذا الأمر من قبل وقلت لك إنها ذات عقلية لا أخاف عليها من أي شئ وهي ليست صغيرة، ويكفي ما تعرضت له من أزمات نفسية، لقد شفيت بأعجوبة ولن أعرضها لأي ضغط مرة ثانية.
- لابد أن تقنعها بقبول الزواج من علاء.
- ماذا؟! أنت تتحدثين وكأننا ما زلنا قابعين في القرن التاسع عشر!!
- أرجو أن تكون واعياً بما تمر به ابنتك، إنها تنتظم في الذهاب إلى الكنيسة وستخرج عن سيطرتنا إن لم تخرج من الدين.

- أمي أرجو أن تطمئني، أنا كلي ثقة فيها وفي عقليتها وأعرف ما تمر به، لا تشغلي بالك.
- لا أشغل بالي؟ لقد تركتك تتزوج من امرأة ليست من دينك وهذا ما نتج، أنت مشغول بشركاتك ومهمل لأبنائك وأنا أتحمل كل قرارتك الخاطئة.

"تخرج سيدة في أواخر الخمسين، يبدو على ملامحها الهدوء والالتزام، جميلة، ممتلئة القوام، متوسطة الطول، ذات شعر بني قصير تتخلله خصلات بيضاء أضفت عليها وقاراً وأناقة، هي ابنة عم عز الدين وزوجته الأولى التي حرمها القدر من الأمومة، إلا أنها كانت صديقة لضرتها الإيطالية، وأم ثانية لولديه، لكن بعد وفاة أمهما ..اتسعت المسافة بينها وبين أبنائها وخاصة الفتاة التي كان ارتباطها شديد بأمها ارتباطها العاطفي والفكري ربما لأنهما أعتقدا أنها ستستأثر بالبيت"

- ما الأمر؟ لم صوتكما مرتفع، وصل سمعي شئ ما عن ابنتي، هل حدث شئ لها؟!
- (بدا على وجهها القلق)
- لا شئ، عبير، النكد اليومي.
- ما الأمر يا ماما؟

- أبداً ابنتي، أحاول أن ألفت انتباهه إلى ضرورة أن يمنحها بعضاً من وقته واهتمامه كما يهتم بشركاته، إنها ابنته الوحيدة رغم ذلك يهملها ولا يسأل عنها
- ماما أنا خارج عندي شغل وسامي وحده بالشركة.
- تفضل، غداً ستندم على تجاهلك للبنت
- (نظرت عبير إلى عز وحماتها وقد ابتلعت كل أسئلتها واكتفت بالمشاهدة فقط والاندهاش.
- أريد أن أطمئن عليها يا ماما، ماذا بها؟
- (حكت لها الحماة مخاوفها على الفتاة التي ترتاد الكنيسة بانتظام منذ موت أمها، ورغبتها في إتمام زواجها من علاء ابن عمها"..
- أنا وجهة نظري كما عز، أنا أثق فيها وفي حكمتها وأفضل عدم الضغط عليها في هذا الأمر، إنها رحلة عمر ورفقة ولا يجوز أبداً أن نجبرها على أن تسير في رحلة لا تريدها.
- ما له علاء يا عبير؟
- علاء إنسان ناجح وله مستقبل رائع لكن أنت تعرفين أنها لا تشعر به، والزواج بلا حب أو قبول متبادل هو الجحيم، اتركيها أمي تعيش.

(كانت تلقي بتلك الكلمات وخلف صوتها نبرات حزينة)

- هيا لنتناول الإفطار في حجرتي فالمائدة كبيرة ولا يجلس عليها إلا أنا وأنت لا داعي لها، وسوف أقوم بعمل كوبين من الشاي بالنعناع لك ولي بنفسي، بعدها نذهب إلى النادي، ما رأيك؟
- ما يهون عليّ وحدتي وأرَقى هو أنت عبير، أنت الابنة التي لم أنجبها
- أما أنا فلا أبناء لي من رحمي أو من رحم غيري أمي، حتى الذين ربيتهم كأبنائي واعتقدت أنهم سيكونون عوضاً لي، ابتعدوا عني، أخذتهم أحلامهم.

صعد السيدتان إلى حجرة عبير ليتناولا الإفطار.

***

٨

"الحب منحة إلهية لا يجب أن نضحي بها، بل كل شئ في سبيله مباح، نحن نضحي بمخلوقات أدنى لأجل الرب، فكيف لنا أن نضحي بالحب – الذي هو أسمى - في سبيل ما هو أدنى، والمحبة اسم من أسماء الرب"

"لا تفسحوا مكاناً للكره بقلوبكم، فهو مرض يتوحش ويلتهم صاحبه"

"الإيمان مقره قلوبكم، لا تلوثوه بالتفكير والجدل، سلموا عقولكم للآيات واسجدوا طاعة .."

تقف فتاة جميلة مكتحلة العينين، ترتدي قميصاً قصيراً كان محيطاً بصدرها وكاشفاً عن خصرها على تنورة باللون الأحمر والأصفر، تتخللها تطريزات بالوسط وكرانيش ملونة بالذيل، الذي يطول من الخلف ويقصر من الأمام لتكشف عن ساقين من الأبيض الأبانوسي، تنتهي اليسرى بخلخال علقت به أجراس صغيرة من الفضة، يبدو منه أنها غانية، لتقاطع رجل الدين قائلة:

- تتحدثون عن الحب وأنتم من زرع الكره والكبر ولم تعترفوا إلا بأنفسكم، إنكم تدعون امتلاككم للجنة والحقيقة، ألا ترى ما في كلامك من تناقض؟ كيف

يمنحنا الإله عقلاً ويميزنا به عن كل ما صنع وأنت تطلب منا ألا نتبعه أو نطيعه؟ أتخشون إن فكرنا أن نسحب منكم صلاحيتكم كموظفين عند الرب، تقبضون من الناس لتمنحوهم رقعة في الجنة؟ مم تخشون؟

(صياح وأصوات متداخلة تنهر الفتاة ألا تواصل إهاناتها لرجل الدين، ثم صوت يعلو من أحدهم ..

- اخرجي يا غانية من بيت الرب، أنت تدنسينه..

ثم ترتفع الأصوات ويتجه البعض للإمساك بها ليخرجونها من المعبد ويلقون بها خارجه..

نهضت عن الأرض تنفض عن ملابسها التراب وتمسح عن شفتيها قطرات الدم، حيث ارتطم فمها بالأحجار، كان هناك رجل دين يقف بجوار باب المعبد يتأملها ويراقب مدى الأذى الذي لحق بها، بعد أن ابتعد الناس عنها اقترب منها ليطمئن عليها، سألها:

- هل أنت بخير ابنتي؟

- هل لك ابنة غانية؟ (تقهقه وفي عينيها نظرة تشع سخرية ونقمة).

- الجسد يفنى ابنتي وتظل الروح بنقائها.

- لتحدثني عن الحياة يا أبتي، فلا ألم بعد فناء جسدي الألم نشعر به ونحن أحياء.

- إن احتجت إلى شئ فلا تخجلي أن تطلبيه مني، أنا هنا في بيت الرب، لتأتِ في أي وقت واسألي عن "سانتينو"

- أشكرك

تسير في طريقها ليتبعها سانتينو من وقت لآخر بنظراته مطمئناً عليها.

***

٩

تربيت على لسانين وحضارة شعبين ومعتقدين، أحببتهما ولم أفرق بين أي منهما، ليبرالية أمي واحترامها لمعتقد الآخر جعلني أنظر للأمور بشكل متعال، لا أتعصب ولا أرفض الآخر .

كثيراً ما كنت أصوم صوم العذراء وأصوم رمضان، أزور كنيسة أمي وأقرأ في القرآن، إلى أن أغضبت مناقشاتي عائلة أبي واتهموننني بالهرطقة، وحاول أبي معالجتي بالزواج الأسري من ابن عمي الذي لا تربطني به عاطفة أو ذوق ولا هدف.

أسرة أبي من أثرياء المجتمع، من تلك العائلات التي تكتفي - حين التعامل - بذكر لقب العائلة، حين كنت طفلة كنت كثيراً ما أستمتع بتلك المزية، ثم ما لبثت وشعرت بأنها قيد حول رقبتي كما الطوق الذهبي الذي يلف حول رقبة كلب جولدن.

حاولت العائلة استمالتي حين كبرنا، فلقد كنت أنا الابنة الصغرى، لكن محاولتهم باءت بالفشل، فلقد تمسكت بحقي في الاختيار وحقي في أن أكون إنساناً خلقه الله حراً، لتنتقل المحاولة إلى أخي الذي لم يقاوم طويلاً، فلقد أعجبته الحياة الجاهزة والكرسي الذي كان يفتح له كل الأبواب المغلقة حتى قلوب الفتيات ليتسلم هو مفاتيح المملكة ويتركوني لحالي، نعم، أنا ڤاريم.

١٠

كانت تحكي لي كل ليلة قصة عشقها له وانبهارها به، فقد جعل منها بطلة في فيلم عن قصة حب مستحيلة، رغم ما كان بينهما من عوائق وجبال تحول بين تلاقيهما، فلا لغة تجمعهما ولا حضارة، جمعهما ما هو أعظم، ما لا يحد قدرته جنس أو لون أو دين، جمعهما الحب.

كان أبي ممن يعتلون الكراسي ولا تعتليهم، يرأس عدة شركات ولا يرأسه أحد، لا يخشى إلا سلطة جدتي وجدي اللذين عارضا زواجه من أمي الأجنبية البسيطة - إذا ما قورنت بأسرة أبي - والتي كانت تعمل كمراسلة صحفية في جريدة اقتصادية عالمية، التقت بأبي لإجراء لقاء صحفي كرجل أعمال ناجح تردد اسمه بين رجال أعمال عالميين، ويدير شركات من أنجح الشركات في مصر والعالم العربي، كان أبي متزوجاً من ابنة عمه التي لم تنجب له الوريث الشرعي الذي ينتظره ليرث كل هذه الثروة، التقى بأمي التي أبهرته بثقافتها وطيبتها وجمالها، (غالباً ما نقع في الحب أولاً ثم نختلق الأسباب لتبرير هذا الحب، بل ونحاول أن نجعل الآخر يعتنق رؤيتنا له)، كنا أنا وأخي قطوف هذه النبتة لتسير العلاقة كما كل شئ يرتفع حد الذروة ليشرع في

الانتقاص، وتطفو على السطح أولويات أهم وأرقى، فنحن حين نمتلك ،نزهد.

تعرضت قصة حبهما للكثير من المعوقات، وكانت أكثرها شدة رفض جدتي وعدم رضاها، فلقد عرضت عليه الزواج من سيدة مجتمع مصرية من نفس طبقته، ولكن الحب كانت كلمته أقوى، تزوجا وأنجبانا، أخي سامي الذي كنا نناديه بسام، وأنا التي تولد صراعاً لتسميتي، أصرت جدتي على أن أكون فاطمة، وأصرت أمي أني مريم، فدمج أبي اسم الطاهرتين، فكنت "فا"، أول فاطمة، و"وريم"، آخر مريم ، هجينا من ثقافتين؛ كنت "ڤاريم".

شببت في بيئة تنقسم بين غربية متحررة وشرقية متعصبة، في أغلب الأوقات كنت أنا وأخي من ربطنا بينهما وخلقنا مساحة وعالماً واحداً بينهما بداخلنا ..

عانى سام كثيراً من قيد أبي وأسرته حتى أنهم اختاروا له الكلية التي التحق بها، أجبروه على الالتحاق بكلية الهندسة ليتولى إدارة شركات العائلة، حاولت أمي أن تمنحه حرية الاختيار وحرية السفر وأن يخلق له عالمه الخاص بعيداً عن مشروعات العائلة له، ولكن سلطتها كانت أضعف وكانت إرادته أقل، فقبل المسؤولية،

وتولى سام إدارة المجموعة مع أبي، أما أنا فلم ينجحوا في تطويعي لرغباتهم، فكنت أكثر تمرداً وحرية ولأني الصغيرة وفتاة، دللوني وتركوني لأنتقي كليتي، وعملت في التدريس ورفضت العمل في شركات العائلة وسعيت لاستكمال دراستي العليا في الفلسفة ربما أجد رداً شافياً لما يدور بداخل عقلي من تساؤلات وداخل نفسي من صراع، بل صراعات.

١١

أعطته جواز سفرها مبتسمة تنتظر ترحيباً بعودتها وهي تترنح سُكراً..

- أنا دليلة، الفنانة دليلة

- جواز السفر يقول أن اسم حضرتك شوقية .

- إنه اسمي القديم،

(قهقهت بصوت لفت إليها الأنظار لتكمل كلامها الذي تعثر على لسانها الغارق برائحة الخمر، فلم تتمكن من الحفاظ على اتزانها):

- صار ضيقاً لم يعد على مقاسي أنا الفنانة العربية "دليلة".

توجه ضابط الأمن لينهي النقاش بينها وبين الموظف:

- أهلاً بالفنانة، حمد الله على السلامة نورت بلدك تفضلي حتى لا نعطل باقي الركاب.

رفع الموظف رأسه مبتسماً ونظر إليها ثم ختم على جواز السفر..

- أهلاً يا فنانة

نظر إلى زميله بالكابينة المجاورة ضاحكاً: هل تعرف تلك الفنانة؟

- ربما، فهم كثر، هم ولاعبو الكرة، بعد عدة سنوات كل الشعب سيكون إما لاعب كرة أو ممثل.

- صدقت.أو مغني مهرجانات.

وضعت حقائبها فوق الترولي وتوجهت إلى خارج المطار، لتجد سيارة أجرة، تشير إلى السائق ليأخذ الحقائب، تركب السيارة في بطء لعل هناك معجباً يتذكرها ويطلب توقيعها، يخيب توقعها، تدخل السيارة في يأس وتصفع الباب بقوة ليثير ذلك غضب السائق

- بالراحة يا سيدتي السيارة عليها أقساط

- اسمي الفنانة دليلة

- كما تحبين، يا دليلة هانم إلى أين؟

- إلى محطة مصر أريد أن ألحق بالقطار المتوجه إلى الإسكندرية.

- إن كنت متعجلة أستطيع أن أوصلك أنا

- كم ستأخذ مني أجرة؟

- كلك نظر

- لا أحب تلك المهاترات قل لي كم إما أقبل أو أرفض.

- خمسمائة؟

- كم؟! (سألت بصوت غاضب)

- لا تغضبي يا فنانة ادفعي ما تجودين به؟

- أوك، سأدفع لك تحرك فأنا مرهقة ولا أريد أن أتنقل هنا وهناك

***

١٢

تهرع ماجدا إلى باب الكنيسة صارخة: كيف تحايلتم على الإله وفوضكم في محاكمة الناس؟! من منحكم حق الحرق بالنار؟ هل تنزلتم من السماء ومنحكم الإله جسداً مختلفاً عن أجسادنا؟ هل منحكم دماً بلون آخر غير لون دمائنا؟ هل منحكم مفاتيح السماء دون غيركم؟

ظلت ماجدا تصرخ بكلماتها ولا أحد يسمع، فكل من بالكنيسة توجه ليشهد حرق (هيباتيا)، منهم من ذهب أملاً في أن يشاهد معجزة إنقاذها فقد ينزل ملاكاً أو يهبط الإله منقذاً لها.

أخذت ماجدا تهيم في الساحة التي تتوسط الكنيسة تدور حول نفسها ثم تسقط أرضاً، تدفن وجهها بين كفيها وتركع باكية، تلطخ وجهها بالتراب ثم تنظر إلى السماء تتضرع إلى الكائن هناك أن ينتشل هيباتيا وينتشلها أيضاً من وسط هذا العالم الظالم.

تعود وقد تلطخت بالتراب والدموع، تدخل بيتها تلقي بجسدها على الأريكة الخشبية وتنام، طرقات على بابها باليد الحديدية، تنهض من النوم، تفتح الباب لترى إحدى جاراتها، تلقي عليها تحية الصباح، تدعوها ماجدا للدخول، تجلس تلك الجارة لتقص عليها ما حدث بالأمس حيث انتشر بين الناس أن سيدة من أهل الإسكندرية

القديمة عادت من الحريق وترتدي ملابس كما التماثيل الرومانية، يقال إنها كانت فيلسوفة..

- ماذا؟
- ما قلته لك
- هل اسمها هيباتيا؟
- نعم بالفعل هذا ما سمعته
- كيف ذلك لقد شهدت حرقها بالأمس؟!
- لا، بل خرجت من الحريق ولم يمسسها أذى
- لكني رأيتها بنفسي وذهبت إلى المعبد شاتمة لمن فيه ولاعنة.
- متى ذلك؟
- أنا لم أركِ تخرجين وأنا كنت في الشارع طوال الليل ولم أشاهدك تعودين.
- أستأذنك، أحتاج أن أستحم وأذهب لأتفقد الأخبار وأشتري حاجات من السوق
- هل تحبين أن أصطحبك؟
- لا سأحتاج أن أذهب إلى المعبد أولاً

تخرج ماجدا في لهفة لكي تتحقق مما قالته جارتها، تتجه إلى المعبد وتطلب مقابلة أحد الكهنة، يخرج لها أحدهم يرحب بها : نحن في خدمتك أيتها الأخت

- هل جئتكم بالأمس هنا؟

- أعتقد لا، فنحن ننام بعد صلاة "الستار"، ما حاجتك؟
- هل سمعتم بما يدور من عودة هيباتيا من الموت؟
- لا لم نسمع، الناس يا ابنتي سهل استهواؤها، فهناك مِن السحرة الكثير، وهل هناك من يعود بعد الموت، والموت خاصة حرقاً؟!
- نعم هناك، في كتابكم الإله مات وعاد من الموت، فلِم لا تصدقون أن يعيد الإله أحداً من الموت؟
- ربما ابنتي..

"تلقي عليه السلام وتدير له ظهرها وتنصرف"

- من أنت يا ابنتي؟

تجيب وهي في طريقها خارج المعبد: أنا ماجدا الغانية

- غانية؟!!
- نعم، هل غريب أن تتحدث غانية عن الرب؟
- بالطبع لا، الروح لا تلوث يا ابنتي فهي هبة الرب
- طالما هي من الرب فلم تسلبونها من البشر؟
- نحن لسنا آلهة يا ابنتي، نخطئ ونصيب.
- عجيب أمركم، بالأمس حاكمتم هيباتيا باسم الرب وأنت تحدثني باسم البشر اليوم!!

تستدير لترن الأجراس المعلقة بخلخالها وتنصرف، لم يكن رنين خلخالها كصوت جرس الكنيسة الذي يدق إيذاناً

بالصلاة، رنات خلخالها كانت أذاناً للحب، لصلاة بشكل مختلف ومعنى مختلف،
يقف سانتينو في ذهول وقد تجمعت كل أنواع التساؤلات والاندهاش بداخله، فلأجراسها صدى كما حديثها، في هذه الفتاة أصوات وروائح تجذب قلبه للسقوط المحبب والاستسلام لعذوبة دعوتها، إن جسدها موصوم بلمسات الرجال، لكن روحها لم تلوث، حديثها وغضبها يحركهما الحب، يحركهما العدل، أخشى أن تكون ابنة الشيطان وقد جاءت لإغوائي وعرفت نقاط ضعفي، وهل سيدافع الشيطان عن روح زهقت؟ هل سيعارض قتل إنسان لأخيه الإنسان؟
لا، ماجدا ليست شيطاناً، بل من يقتل أو يدعو إلى القتل.
وقف طويلاً يراقب ماجدا أثناء خروجها من المعبد، كانت رافعة الرأس، تسير في تؤدة، تتهادى كما الملكات!! وفي ذيلها السحر.

***

١٣

يقتحم نور الشمس حجرتها لتنهض من نومها وهي تتلفت حولها تتحسس جسدها ورأسها،

- يا الله أين منهم المفر؟!

كانت واحدة من مرات عديدة حاولتُ فيها القفز من بقعة سقطت فيها دون إرادة مني أو اختيار، حاولت أن أبتعد عن عالم كل ما فيه يضع المساحيق ليخفي نواقص وتشوهات داخلية قبل أن تكون ظاهرية، اشتريت شقة صغيرة بإحدى المناطق النائية عن أسرتي وما لها من أذرع أخطبوطية تطولني أينما اتجهت.

كان تعلقي بأمي وذوباني في وجودها قد أغلقا علي عقلي، فظللت ظلاً لها، كنا كما التوأم أينما تكون أكون وأينما أذهب أصحبها معي، فقد كانت شرقية في بعض المبادئ التي ورثتها عن أصولها العربية، وغربية في مبادئ أخرى، كانت كما مجمع يحوي بداخله مخطوطات من كل حضارة وتاريخ، كلما سألت وجدت جواباً أو توجيهاً لمكان الإجابة..

أرشدتني كيف الطريق إلى فهم الحياة واختلافاتنا وتنوعنا، وأهدتني حضنها الذي احتواني لسنوات طالت حتى أنها اتهمتني بأنني حولتها إلى أم مصرية بامتياز،

فلا يعقل أن أظل أهرع إليها كما الأطفال، لكنها لم ترشدني إلى الطريق لتجاوز رحيلها، لم توصني ماذا أفعل ..

غادرتني دون أن تحزم حقيبة أستدل منها على نية الرحيل .

غادرتني وكفى، لأعيش أتعثر في الممر الطويل بين غرفتي وغرفتها، أطرق بابها فينبح على طرقاتي الفراغ، متى وكيف غزاها السرطان؟ لا أعرف، لكن ما أدركته بعد حين أنها أصيبت به لفترة ليست بالقصيرة دون أن تخبرني، ربما لأنها تعلم مدى تعلقي بطيفها وبذيل أرديتها..

رحلت في هدوء وسكنت أرضاً ربما لن أجاورها أو أحتضنها فيها حين تأتي لحظة رحيلي، دفنت مع أهل الكنيسة ..

سألتها وكانت نائمة فلم تجبني: "وأنا يا أمي بأي أرض سأموت؟ بأي حضن سأسكن؟"

أمسكت بقلادتي التي صارت قدري، لأغيب عددا من الساعات، وأفيق لأجد أن الفيلا خلت من عطرها ومن عينيها الخضراوين النقيتين كما حشائش الأرض، وكنت أنا وجدتي وجملة مكررة تعاد كل صباح ومساء: أنت

ابنة عز الدين ولابد أن يكون أبناؤك من صلب تلك العائلة.

تعرضت لأزمات نفسية كانت تصعد بي حد الانعزال والسكوت والصيام عن العالم، فأقلقهم ذلك وصممت على شراء شقة بعيداً عن أطلال حجرة أمي، فسمح لي أبي ومنع جدتي عني، وغادرت معتقدة أني سأنسى وأعيش كما خطَّ القدر كتابي، هيهات أن ننخلع عن موروثاتنا كما ننخلع عن المكان!

يبدو أنني سأظل في حالة هروب مستمر ما دام اسمي معي.

سافرت إلى شرم بحثاً عن هواء يخلو من الشجار والنزاع إلى أن أجد طريقي، حمقاء، الذكريات ليست حقيبة نتركها بمكانٍ ما ونغادرها، إنها سطرت أو سجلت على قرص مدمج في عقولنا فلا تفارقنا بفراق مكانها.

التقيت به هناك، في شرم، كان أنيقاً وسيماً لا تفارق وجهه تلك الابتسامة، له بشرة برونزية حيث استقر في حياته على السواحل، في صوته نبرة واثقة، تخرج من فمه الكلمات في أناقة ووضوح كأنه أديب أو شاعر، لقد أخرجني من قوقعتي لأرتدي أنوثتي، لقد جلست لأول مرة أمام المرآة لأتحسس ملامحي، وأضع بعض لمسات

من أحمر الشفاه ومورد الخدود، وأطلق لشعري الحرية ليعلن عن جماله، يلاعب نسمات الهواء السابحة على رذاذ ماء البحر..

كانت نظراته تثرثر بالكثير رغم سكوته الغالب، جلسنا في أحد الكافيهات وبدأ يحدثني عن قصيدة عصية على أن يسمعها إنسان، القصيدة عن عيني ورموشي وعن جمالي الروماني كما وصفه.

الغريب أني قد سمعت ذلك التغزل من قبل، ولكنه بدا وكأنني أسمعه للمرة الأولى ..

مرت الساعات كما الأغنيات المعاصرة، صاخبة قصيرة وسريعة.

في اليوم التالي دعاني لمشاهدة بيته في منطقة نائية بالقرب من البحر بالعريش، وبعض اللوحات التي يعتز بها، ولم أرفض، فلم يراودني أدنى قلق أو خوف من انفراده بي..

كان فايز مديراً بالفندق الذي نزلت به، تميز بحضوره الطاغي، ونظراته المُرحبة، وقدرته على حل أي مشكلة تواجه أي نزيل ..

ربما ما جذبني إليه حاجتي لملء فراغ يتسع داخل قلبي أو بالأحرى بروحي، أنشد يداً تربت على كتفي، وعيناً تنظر لي بذكاء، تقرأ آلاف التساؤلات وتجيب دون

حاجة إلى غربلة لمقصدي، وإن لم تنجح في ذلك، لتأخذني مني وتقفز بي إلى معزل عن الصراع الأزلي بيني وبين ميراثي من الازدواجية.

تنقلنا معاً في أماكن خرجت من كتاب الأساطير، وتوغلنا في جولات ليلية حيث تنتهي ساعات عمله.. قص لي مغامراته والتي كان ينهيها دائماً بنفوره من بطلة الحكاية لأنها لم تلمس روحه، ربما جذبت ضعفه واستفزت ذكورته، وتناوبا المتعة، ولكن لا يلبث أن يفيق ليغادر؛ فهناك ركنة خاوية في صدره لم تتمكن أي منهن من ملئها، ما نقلني من عالم الحلم معه والحياة، وصحبته التي أخذتني قليلاً من صراع لا يهدأ داخلي، حديثه الدائم عن طموحاته في عالم البيزنس والمال، هنا كانت صفعة حدسي وتساؤلاته التي أفسدت كل لحظة معه، وعدت لأسقط على أرض الواقع لأدرك أن اسم عائلتي يتفوق على تفردي واستقلاليتي، وما زال يسلب مني الراحة والسلام .

كلما فتح حديثاً عن مشاركة مالية بيننا، تملصت، إلى أن تعاظم حجم الفأر داخل صدري فتغذى على انبهاري به وتعلقي بصدره كما الأطفال.

***

١٤

تتوسط هيباتيا "الموسيون"، المعهد العلمي ليرحب بها الطلاب الذين كان أغلبهم من الشباب، يقول أحدهم:

- إنها معجزة، كيف لم تمسسك النار؟ لا شك أنك من الآلهة!!

يتدخل آخر قائلا:

- لا تجعل الخرافة والأساطير تسحر عقلك، فلقد تعلمنا من هيباتيا أن بداخل كل منا إلهاً يسكن داخل عقولنا ومجال صوته هو العقل، لا يسمعه إلا ساكنه.

تقف الفتاة التي طُردت منذ قليل بالمعبد مترددة في اقتحام هذا الجمع الطاهر، تراها هيباتيا، تشير إليها بيديها لتنضم إليهم.

تطلب هيباتيا من الطلاب السكوت للحظات حتى ترحب بالفتاة وتدع لها الفرصة لتلقي بكلمة:

- أنا هنا لأرى المعجزة بنفسي، فرغم أني لست فيلسوفة، ولست من رواد الأكاديمية، إلا أنني اعتدت ألا أترك لأذني الفرصة لتصديق الإشاعات، واعتدت ألا أصدق إلا ما تراه عيني وتلمسه يدي، ولقد أحببت هيباتيا حتى قبل أن أعرفها، وبكيتها، والآن تمنيت أن ألمسها حية، وكلي فضول أن أعرف كيف تملصت من الحريق؟

- مرحبا بك هنا بالمكان الأكثر تقديساً من أي معبد آخر، هنا تجتمع الآلهة، أنت في حضرة العقل، في أكاديمية الفكر الحر، هنا نتوحد وننصت إلى صوت العقل، أنا لم أهزم الحريق ولكنها قوة عليا تدير هذا العالم ومنحتني دوراً لم يكتمل؛ لذا اعترضت قتلي ومنعتني منهم لأكمل رسالتي حتى لا يسود الظلام، حتى لا يستأثر فرد بالتفكير ويمنعه عن الآخرين حتى لا يستأثر أحدهم بالحقيقة، بالتحدث باسم الآلهة ونحن جميعاً لدينا نفس الملكات والهبة، سيموت جسدي يوما ولكن ستخلد رسالتي وكتبي، حتى يستفيد منها العالم، مهما طال عمر الخرافة ستنتهي كما زبد البحر ويبقى العلم، نحن ابنتي ننادي بالمساواة بين البشر، رجالا ونساء، كلنا نتحمل نفس الأمانة ولنا نفس الهبات، أنت حين تحدثت ذكرت أحد أفرع الفلسفة التي لا تؤمن إلا بالماديات رغم أنك لم تدرسيها، وأنت امرأة، وهذا إثبات أن التفكير ليس حكراً على الرجل.

أمسكت بيد الفتاة وقدمتها إلى الحضور ..

- أقدم لكم فتاة نقية الروح يتحدث لسانها بالحكمة ويشع عقلها نوراً، وأكاد أجزم لكم سيداتي وسادتي أنها تجسيد لمثالها بالسماء.

- هل تعرفين فتاتي القديرة "مُثُل أفلاطون"؟

ابتسمت الفتاة وسالت بعض الدموع التي عكست سعادتها لأن هناك من رآها كما هي وليست كما تبدو للناس، وأجابت سؤال هيباتيا:

- لا، لكن أشعر أنها شئ جميل ..
- هذا يؤكد لي معتقدي أن المعرفة والحقيقة هما انعكاس من السماء في عقولنا دون اختيار منا..

"الجميع يهتف باسم هيباتيا وباسم الإله الذي أخرجها من حريق أشعله غرور بعض الحمقى".

***

١٥

- جدتي، سأسافر للاستجمام بالإسكندرية، رجاء لا تخبري علاء بمكاني وإلا أقسم أنني سأغادر مصر ولن تعرفوا مكاني أبداً، لتطمئني ماما عبير .

تغلق الموبايل ثم تهبط من السرير لتصب لها كوباً من عصير البرتقال، وتتناول ساندويتش من الجبن، وتغلق الشقة، وتجر حقيبتها التي كانت معدة للسفر دائماً، تدخل سيارتها وتتجه في طريقها إلى الشاليه الخاص بأسرتها بمدينة أكتوبر بالإسكندرية ..

- "ما بين شرم والإسكندرية مسافة تقصر لتكون كما المسافة بين عينين، وأحيانا تتسع وتطول لتبتعد كما المسافة بين القطبين، هذا يتوقف على ما بداخلي من صراع ووحدة.. ".

فقدت شرم عذريتها حين فقدتُ شغفي به وبمتعة صحبته، صار اسمها يثير بداخلي الغضب لأنه هناك يقبع بأحد أركانها متأهباً للانقضاض على فريسته، أحمل بداخلي نقمة وغضب كل النساء اللائي تلاعب بقلوبهن وجردهن من اليقين، اليقين بأنفسهن وبالآخر أغواني بالوشم الكنسي للصليب على معصمه الأيمن، تفاءلت بأن السماء قد أهدتني الطريق القويم والإجابة

لأرسو أخيراً وأختار، ليتحول الحلم سريعاً إلى كابوس نهضت منه وقد تملك رأسي الصداع والصخب، لتظهر ملامحه قريناً لعلاء ابن عمي، لا فرق، ما هي إلا أسماء سميتموها..

أعود مجرجرة حقيبتي وقد تكدست بملابسي المرتبة وأوجاعي وتساؤلاتي المبعثرة..".

تدير الراديو على (الإف إم)، تغلق الشباك وتكتفي بصوت الموسيقى ولمسات المكيف الباردة .

لمست تلك القلادة التي لم تغادر رقبتها منذ كانت بالثانوي، والتي أهدتها لها أمها، فلقد صنعتها لها خاصة.

"أكاد أفقد عقلي وتوازني الذي حافظت عليه طوال تلك السنوات، كم أتلفظ بكلمات لتخرج عن لساني ولا يصدقها عقلي، أتحدث عن الحرية وعن التفرد وبداخلي كل الشك بأني فعلاً حرة، ماذا عن الحب؟ هل هو منحة الرب أم اختيارنا المحض؟!

ربما لم ألتق بعد بمن ستمنحه لي السماء، وربما لم تكن مشاعري نحو فايز إلا تعجلي للحب والهروب من حتمية ارتباطي بعلاء؛ لذا كنت حرة الاختيار بألا أحب

أياً منهما، فلا حرية مع الحب الحقيقي فهو يتملكنا، يستعبدنا.

أنا اخترت ألا أحب علاء، واخترت أن أنفض فايز عن قلبي، ولم أنسَق طويلا خلف تلك المشاعر بل اخترت البعد بمجرد تأكدي من انتهازيته، ولم أستسلم لتلك الومضة التي خنقتها وأجهضتها قبل أن يكتمل نموها وتبتلع حريتي، لأني لم أحب أيا منهما..

أثق في أن الإنسان يقدر على كل شئ إن رغب في ذلك، وأننا نحن من نختار ضعفنا والإغراق فيه، الإنسان مخلوق بداخله طاقات لا نهائية، وقدرات لا تحصى، فقط يحتاج أن يكتشف ذاته ولا يستهين بنفسه ربما أيضا نتمكن من إدارة دفة الحب ..

لا أدري، لقد تعبت، ألا يكفيني الصراع الدائر بداخل عقلي وقلبي لتحديد هويتي؟

فجأة تجذب المكابح لتقف السيارة، فلقد اصطدمت بشئ ما، تخرج منها وتعود إلى الوراء لتكتشف أنها صدمت شاباً ملقياً على الأرض، هرعت إليه لتطمئن عليه، وجدته ممسكاً بساقه اليمنى وسمعت أنينه متوجعاً..

- آسفة لحضرتك كانت الأبواب والشبابيك مغلقة وسرحت قليلاً فلم ألحظ مرورك أمامي، هل أنت بخير؟

- آه..

- هل تقول آه بمعنى أنك بخير أم تتألم؟

- ماذا ترين ؟

- أعتذر، ساعدني وانهض معي أنقلك لأقرب مستشفى على حسابي، أرجوك الناس ستتجمع حولنا ولا داعي لذلك، أنا سأتكفل بكل مصروفات العلاج وسأعوضك عن إصابتك، لكن رجاء ساعدني وانهض معي.

نهض معها وركب السيارة، قبل أن تتحرك طلبت منه أن ترى بطاقة هويته حتى تطمئن من معها بالسيارة، فهي امرأة والرحلة طويلة، قدم لها بطاقته، عرفت أنه يعمل في السياحة

- مرشد سياحي؟

- نعم، مرشد سياحي للوفود التي تتحدث الصينية

- للصينين؟

- نعم للصينين، هل من سؤال آخر؟

- لا، آسفة أرهقتك

- وحضرتك مَن تكونين؟ فمن حقي أن أعرف من كانت ستستدعي عزرائيل لي.

- أنا ڤاريم؟

- ڤاريم؟!
- نعم ڤاريم
- وڤاريم هذا له أب أم بلا والد؟
- ڤاريم..... (ترددت في ذكر اسم أبيها فربما علم من هو وحاول ابتزازها، فاخترعت اسماً له.
- أنا ڤاريم مجدي
- اسمك غريب، ممكن أرى بطاقة هويتك؟
- لا
- لماذا؟ أليس من حقي؟
- لا ليس من حقك، من حقك أن أعالجك وأعطيك التعويض المناسب بلا طمع في مبالغ لن أستطيع أن أوفرها لك
- من تقود مثل هذه السيارة لابد وأنها تمتلك ما يعوضني.
- ماذا تقصد؟
- لا شئ سيدتي، أنا لا أقبل العوض، هكذا للأسف تربينا في بلادنا، أن العوض عيب مع أن المثل نفسه بيقول: "من أفسد شيئاً فعليه إصلاحه"، عوائلنا أورثونا الخبل فهناك المثل ونقيضه.

وصلت به إلى مستشفى خاص في الطريق، أحضرت له كرسياً ودخلت به المستشفى، يقوم الطبيب بعمل أشعة على الساق بعد أن قام بفحص عينيه ليقرر عمل جبيرة، ويكتب له روشتة بعددٍ من المضادات والمسكنات ويوصي بالراحة لمدة خمسة عشر يوماً، سأله الطبيب إن كان يرغب في استدعاء الشرطة، فرفض ناكراً أنه كان خطأها بل كان خطأه أن يسير في الطريق السريع دون أن ينتبه.

شكر الطبيب، ودفعت ڤاريم التكاليف وصحبته معها إلى السيارة، سألها أن تنصرف بعد أن طلب (أوبر)، رفضت وألحت أن تكمل وعدها له بإيصاله إلى بيته كأبسط حق له.

- طالما تصرين فلا مانع، فصحبتك أجمل من صحبة سائق ربما يكون أجن منك.

تطلق ضحكة أربكته وجذبت نبضة من قلبه قبل أن تلاحقها نظرات عينيه.

***

١٦

اعتادت أن يهتم بها الرجال، لم تشغل نفسها بما وراء هذا الاهتمام، فالبعض - وهم الأكثر - كانوا يتحينون الفرصة ليسرقوا منها لمسة أو قُبلة لحظة سُكر أو ربما موعداً، فلقاء، فسرير.

عُرف عنها أنها لا تمانع ولا تتملص من معجب تطل من حافظته أوراق نقدية خضراء وحمراء أو شيكات سريعة الدفع أو ڤيزا ذهبية أو ماسية توفر لها ما تحتاجه، هذا ما أشيع عنها وتردد بـ (السوشيال ميديا) والإعلام المرئي، حتى أن صورتها صارت كاريكاتيراً ساخراً، حيث رسمها أحدهم على شكل امرأة بدائية ترتدي المختصر من الملابس، تمسك بالرجل من رأسه بيسراها، وبيمينها قطعة حجر.

لا تتذكر تاريخ أسرتها أو ربما تناسته؛ فهناك الكثيرون ممن لديهم مهارة التحكم في ذاكرتهم، فيقومون بعمل "ديليت" أو محو لما أوجعهم في الصغر.

لكنها وعت على هروبها من الصعيد وحضورها إلى الإسكندرية لتبتعد أقصى الكيلومترت عن يد أهل قريتها، لتتسول لفترة ثم تنتقل للعمل في إحدى بيوت التجميل كعاملة نظافة، لتترقى بعد ذلك إلى كوافيرة ثم

تقذف بها الأحداث لتمارس البغاء في الخفاء، إلى أن يكتشفها ريجيسير وقع في هوى جسدها فمنحها الفرصة لتكون (كومبارس) متكلماً في أحد الأفلام..

هكذا تنقلت وانتقلت إلى عالم الفن، حين تسألها عن عدد مرات زواجها، تستغرق وقتاً حتى تسترجع الأسماء أما الوجوه فلا تكاد تدرك ملامحها ..

اسمها شوقية، حين دفعت بالباب ليفتح أمامها بالشهرة اختارت دليلة لحبها للفنانة شادية ولعشقها لعبد الحليم، فلقد تمنت أن يحبها بطل ما ويضحي من أجلها كما فعل حليم مع دليلة..

لم تنل من الاسم إلا كونها فنانة مغمورة وما زالت، فسمعتها في ممارسة العهر والتعري أصابت المخرجين بفوبيا الرفض من الجمهور..

جلست لتعبث في شبكات التواصل الاجتماعي لتلتقط لنفسها صورة وهي نصف عارية وتنشرها على قناتها باليوتيوب، لاقت الصورة رواجاً وصارت حديث الناس، إنها تفتقد الاهتمام والأضواء والمعجبين، والعمر يجري سريعاً كما الشلال ولا تستطيع أن توقفه أو حتى تعطله قليلاً..

لقد خرجت من حياتها ببعض الأموال وبعض المجوهرات ولكن بلا أهل أو أولاد..

جلست ممسكة بفنجان قهوة الظهيرة وأدارت التلفاز تقلب في قنواته التي تعدت المئات، لتقع نظراتها على أحد البرامج المعادة لسهرة الأمس عن الڤيديو المسجل لها وهي تلقي بتحية الصباح على جمهورها وهي شبة عارية وفاقدة للوعي، وهجوم من الجمهور وكم من الاتصالات التي تسب فيها وفي انحلالها، وما سببه من انفلات أخلاقي وانتشار الرذيلة، ضايقتها الكلمات التي أطلقها المحاور والمتصلون، لكنها ما لبثت أن ابتسمت، فأخيراً تذكرها الناس حتى ولو كان سبب عودة تردد اسمها على الألسن هو عريها، لقد جهزت الرد المناسب والدموع المصاحبة التي ستستجدي بها عطف الناس واهتمام المنتجين والمخرجين لمهارتها في تمثيل دور الضحية .

١٧

إن لم يرتق الفن والأدب بذائقة الشعوب فقد صار أعرجَ يتوكأ على ساق واحدة..

إليكم أغنية أم كلثوم "أراك عصي الدمع" أو "من أجل عينيك" أو "أغدا ألقاك"، لقد رددها الفلاح وهو يعزق في أرضه، وغناها سائق القطار، وغناها الطبيب، والمتعلم، والأمي، بنفس اللغة الفصحى بلا خطأ في النحو أو اللفظ..

إذن، فلقد نجح الفن هنا في الارتقاء بذائقتنا.. ماذا عن دخول عماد حمدي على فاتن حمامة بزهرة قائلاً: "صباحك سعيد يا هانم"! ألم يقتد بهم الأجداد ويقلدونهم؟!

هل لو اكتفى الفن بأن يكون انعكاساً لواقع يفتقد الجمال سيكون دوره إيجابياً أم سلبياً؟

هذا سؤالي لكم، إلى المحاضرة القادمة ..

انتهت هبة من محاضرتها لتخرج وقد اجتمع حولها عدد تجاوز العشرين من طلابها بل معجبيها، حتى استكملوا حوارهم معها فوقفت أمام مكتبها طالبة منهم الإذن بأن تأخذ قسطاً من الراحة قبل المحاضرة التالية، يستوقفها سؤال إحدى الطالبات :

- ألا يجب أن يلتزم الفن والأدب بقيم مجتمعنا الشرقي المتدين ويراعي ذلك؟

تنتظر دكتورة هبة مداخلة من طالب آخر:

- أعتقد أن الحرية هي أهم سمة يجب أن يتحلى بها الفن عموماً، أو ما هو رأيك دكتور هبة؟

- لا مفر، ادخلوا.

دعتهم للدخول معها إلى مكتبها فهي في حاجة إلى الجلوس، وطلبت من الساعي فنجاناً من القهوة.

- هل يقع الحلم الذي نراه أثناء نومنا تحت قانون العيب أو الحرام أو الحلال؟ هل يجب أن أعاقب على حلم رأيته حتى لو كنت فيه قاتلة ؟ ماذا لو مارست الحب خلاله، أو مثلاً تحدثت إلى نبي أو صعدت إلى السماء وحاورت ملاكاً، ماذا إن رأيت الإلهة ڤينوس؟ هل هنا تطبق أحكام الأديان وقانون العيب أم أننا نعترف أنه حلم ولا سلطة لأي مخلوق على حلمي؟

ماذا لو نقلت تلك الأحلام في رواية أوعمل سينمائي مثلاً؟ هل ستنصبون لي المشانق وتتهمونني بالفسق والإلحاد؟

الحلم أحياناً يكون واضحاً صريحاً، يسهل فهم رسالته، وأحياناً يتسم بالرمزية فنحتاج إلى فهم ألغازه وفك رمزيته، وأحياناً يكون نبوءة ..

(سكت الجميع متلهفين على إكمال الحوار الذي صار "منولوجا" تؤديه هبة فقط)

الأديان نزلت كوسيط بين الرب والبشر لتهذيب وتقويم سلوكياتهم وعلاقاتهم بين بعضهم البعض، وانتشالهم من الهمجية، وأنا أرى أن الفن رسالته هي تنقيح الذوق والحس الجمالي والارتقاء بالبشر إلى مرتبة أعلى، وكلما تحرر الفن كلما ارتقى شعبه وصار متحضراً..

"كان هناك من يتأمل الدكتور أستاذ الأدب المقارن، وهناك من كان يتأمل هبة، المرأة التي تفوح منها الأنوثة في أقصى تطرفها، ينصتون إلى صوتها الذي يبعث الحياة ويدعو إلى الخشوع، لإبداع العزف والنغمات، وكأن من صوتها صُنعت أوتار القيثارة، وهناك من غرق في زرقة عينيها التي كانتا بحراً لا يصمد في موجاته الساحرة إلا الدراويش .

- "أعزائي، الفن والأدب لا يقع أي منهما تحت الحكم بالصح أو الخطأ، بل نحن نقيمه بإحدى كلمتين، أعجبني أو لا يعجبني، أما الصح والخطأ فهذا للنظريات العلمية

التي تقع تحت التجريب، وإن تسلطت مقصلة الرقابة والحلال والحرام فقد الفن روحه ولفظ أنفاسه ومات، الفن سواء كان أدباً أو لوحة أو حتى سينما، له رمزياته ودلالاته التي تحتاج منا التأمل والتدقيق فيما بين السطور؛ لذا من الخطأ الحكم على ظاهر النص الإبداعي أو اللقطة الفنية.

حين أسقطت أوروبا عن كاهلها "عين الكاهن" التي كانت تراقب العالم وتتربص بالعالِم والفنان، حين فصلت السماء عن الأرض، نهضت كما المارد ولم يوقف تقدمها كائن، ونحن نسرع كما طائرة نفاثة إلى الوراء ونخطو بخطى مترددة إلى المستقبل".

اسمحوا لي بالراحة لأشرب قهوتي، ورقم موبايلي متوفر على (البورد) برواق الكلية لمن لديه سؤال أو شئ مبهم في محاضرتي..

انصرف الجميع وبداخل كل منهم سؤال أو رغبة أشعلتها هبة ولم تخمدها، أما هي فقد كانت غارقة في المزيد من التساؤلات والأحلام التي لم تضع لها حدوداً ولا نقطة انطلاق.. كانت هبة ذات شراهة في السؤال والحلم.

١٨

خرجت من باب الجامعة لتجد سيارة نصري، المحامي الخاص بعائلتها، منتظراً لها..

- دكتور هبة، تفضلي سأقوم بإيصالك إلى البيت أحتاج إلى محادثتك في أمر هام..

- الأمر الهام هذا لا ينتظر حتى أعود إلى البيت؟!

- أكيد ينتظر، لكن كنت قريباً ففضلت أن أقوم بتوصيلك وفي نفس الوقت أتحدث إليك

- اسبقني وسوف ألحق بك بسيارتي..

- دعيها بجراج الجامعة وتعالي معي بسيارتي

- تمام، ما دمت تصر.

"ركبت السيارة وأسندت رأسها على مسند الكرسي"

- يبدو عليك الإرهاق هبة.

- نعم، لكني أعشق عملي وأستمتع بهذا الإرهاق

- ما رأيك أن نذهب إلى أحد المطاعم لأدعوك على الغداء؟!

- نصري، سامحني فأنا بالفعل في قمة الإعياء ولن أكون لطيفة إن ذهبت معك إلى أي مكان الآن، أريد أن ألقي بجسدي على السرير وأنام.

- آسف..

- لا تتأسف، فقط الظروف ليست في صالحنا اليوم ربما أستطيع أن أحكي معك خلال الطريق.

- أنت تعرفين المشاكل التي يتعرض لها والدك من عائلتك طمعاً في ممتلكاته.

- نعم، هل من جديد؟!

- د.ثروت طلب مني أن أجهز عقود بيع وشراء ليبيع لك كل ممتلكاته حمايةً لك مما قد تتعرضين له من أطماع العائلة.

- وهل يجوز ذلك؟

- من حق أبيك أن يفعل بثروته ما يريد طالما كان حياً، فالميراث يكون بعد وفاة الإنسان وليس في حياته، هو له الحق أن يهبك ما يشاء.

- أنا لا أطماع لي يا نصري، ليت أبي يمنحهم ما يريدون، فالمال مال الله وهذا حق لهم في مال أبي، لا أريد أن أرتكب خطيئة يتحمل عقوبتها أبي وأتحملها معه.

- إذن أنت ترفضين ذلك؟

- نصري، هذا تخصصك وعملك لقد قلت ِرأيي وأعتقد أنك فهمتني، حاول أن تُفهم أبي أن هذا القرار لن يكون في صالح أحد، أنا لست في حاجة لكل هذه العقارات والأموال، يكفيني راتبي.

- كما تحبين، سوف أتناقش معه فيما قلتيه ..

- وصلنا..

"نزلت من السيارة، انتظرت أن يصحبها إلى شقتها ولكنه خرج ليحييها ثم عاد إلى كرسيه..

- ألن تأتي لتتناول معنا الغداء؟

- في يوم آخر فأنت متعبة وتحتاجين للراحة، سلامي إلى بابا.

- يوصل، سلام

***

١٩

نحن مزيج من روح من نور، وجسد، قال العلم إنه يتحلل إلى تراب بعد أن تجف الدماء بالأوردة والشرايين، بعد السكون الذي يهيمن على جريانه.. وقالت الأديان مسبقاً إنا خلقنا من طين..

حين نغذي هذا الجسد ويكون جل هدفنا رغباته واحتياجاته، يطغى ذلك على نهجنا في الحياة، يحدث شئ أُجله حين أمارس الصيام الذي أقرته كل الأديان، تسمو روحي، ويزداد نور تألقها، وتعلن عن خروجها إلى الحياة وتقودني إلى مجالات أكثر رحابة، لا سيطرة فيها للجاذبية ولا هيمنة لرغبات الجسد التي نتساوى فيها حين نمارسها مع مخلوقات أدنى.. تحلق بي حيث يقطن الصالحون والزهاد.

حين يهل شهر رمضان يطغى حضور "فا" وتتأنق ليطغى وجودها وتشرق مع هلاله، أضع فانوساً من القماش ذي النقوش العربية التي تكون على شكل هلال وأشكال هندسية برع فيها العرب، وبألوان استقت وجودها من لون الهلال الوليد الذي يحبو في السماء، ألوان ما بين البرتقالي والأحمر، أرتدي عباءتي البسيطة، هي إلى زي الصوفية والرهبان أقرب، وأضع

ذلك الوشاح، الذي اقتنصته من جدتي، فوق رأسي، وطوال الشهر الرحيم أتقرب إلى الله بالدعاء والمناجاة وأقتصد في إفطاري الذي لا يزيد عن التمر وقليل مما يزين مائدتنا من بذخ الطعام، فأنا أدرك روح الصيام وجوهره وأرفض ما أفسدته عاداتنا من معانٍ سامية لشهر عظيم..

كنت أعتكف أغلب الليل في غرفتي التي حولتها إلى صومعة تحف بقطع تعلن عن انتمائها لمعتقدٍ ما، فهنا بجوار سريري على اليمين فوق (الكومود) تجد قرآناً، وبجواره الـ (بايبل) وأنا أفضل اسمه الإنجليزي لأنه يجمع بين العهدين، وتمثال العذراء أو الأيقونة ببسمتها النورانية، وهناك الكثير من القطع التي كنزتها واشتريتها خلال رحلاتي إلى أماكن كانت مهداً لأغلب الديانات.

لن أنسى رحلتي إلى غار حراء، وما شعرت به من رعشة سرت بكل جسدي حين تصورت أن هنا كان يعتكف الرسول محمد (ص)، ويناجي ربه الذي لم يكن قد وصل إلى كينونته بعد.

عارضتني جدتي كثيراً في تلك الرحلات خوفا عليّ كفتاة لا لشئ آخر، ولكنها كانت ترضخ لرغبتي في

النهاية لحبها لي، وكانت أمي تساندني في كل قراراتي وكثيراً ما كانت تتولى إقناع أبي بما أنتوي فعله، رغم ذلك هي لم تكن تبذل جهداً كبيراً في إقناعهم، فلقد سلموا بأني لن أتراجع عن قراري واكتفوا بأنهم طوعوا أخي سام واندمج معهم في عالم البيزنس..

الصلاة في اعتقادي هي ممر للتواصل بيننا وبين الإله، ولغة اتصال، بها نناجيه ونطالبه بما نريد ونتقرب إليه بالدعاء أو الشكوى، وليست مجرد حركات نقوم بها بشكل آلي بلا معنى..

هكذا كنت أتحدث إليه وأسأله وأجادله وأتوسل كثيراً إليه، فكانت علاقتي بربي خاصة جداً لا يشوبها أي نفاق أو تملق، إنه قرار اتخذته، أن علاقتي بالسماء يجب ألا تقيد بلغة أو بمعتقد أوحَد ..

هكذا أرادها الرب، متنوعة ومتغيرة ومتعددة، وأنا أحدثه بأكثر من لغة، أحياناً أناجيه بالإنجليزية والإيطالية وكثيراً قطعاً بالعربية، وكما أتقرب إليه بصيام رمضان والصلوات الخمس، لا أنسى أن أمارس صوم زكريا وصيام العذراء.

حدث ذلك حين تخرجت من الجامعة وكنت بلا عمل ولم أكن قد أدرجت اسمي بالدراسات العليا بعد، كنت

في حالة نفسية سيئة جداً، فقررت الاعتكاف والترهبن بما يقتضيه من تقشف وصيام لمدة أسبوع.

للعذراء بداخلي قدسية وحب، لا توجد كلمات قادرة على أن تضع إحساسي في جملة تصف ذلك التعظيم والتبجيل لها، فكم تمنيت لو كانت لي الإرادة والحرية أن أهب نفسي للرب، أن أعتزل التكتلات المتناحرة المتنابذة بالألقاب وبالأموال وأحيا في ظل الطبيعة، في كوخ أو غار،

أغبطت محمداً على حريته في الاعتزال داخل ذلك الغار النائي عن وثنية قومه وعلى نصرانيتهم، وكان بداخلي شغف العاشق أن يتحسس عن حبيبه خبراً أو يتشمم رائحته ويعرف كيف يحيا وماذا يأكل وفيم يفكر،

كان هو إحساسي نفسه وفضولي أن أعرف كيف كانت البتول تصلي وكيف كانت تحيا بين يدي الرب**!!** ماذا كانت تتلو؟ بماذا شعر يسوع وهو في حضرة الرب وفيم كان يحاوره؟ فكان اعتكافي وتقشفي لمدة سبعة أيام في بقعتي وصومعتي.

كتبت اللافتة وعلقتها على بابي ولكن قبل ان أعتزل كان لابد من زيارة الجدة وإعلامها حتى لا تقيم الدنيا وتقعدها كما تفعل كلما رغبت في السفر أو الاعتكاف،

تلقت الأمر ببرود هذه المرة ودعت الله لي بالهداية والزواج من رجل يكسر أنفي، ابتسمت وقبلتها وتوجهت إلى غرفتي.

كثيراً ما تلقت أمي اللوم والتعنيف لأنها لا سلطة لها عليّ؛ لذا سلموا أمر رعايتي للجدة التي استسلمت في نهاية الأمر ورضخت بعد محاولات كثيرة لتقويمي، لكنها لم تترك فرصة التشفي من أمي، فكانت تلقي باللوم على جينات ورثتها عن أهلها وليس عن أبي، فلا توجد حالة مماثلة خرجت في عائلة أبي..

- إنها ورثت الجنون والتمرد منك ومن عائلتك فلا أحد من أفراد عائلتنا على مر الجدود والأحفاد مثل ابنتك.

وكما عادة أمي ردت بابتسامة وتجاهل، فاكتفت بتركها والانصراف.

أخرجتُ تمثال العذراء من درج الكومود ووضعتها فوق مكتبي، فتحت الثلاجة وأفرغت ما بها من طعام وفاكهة وسكاكر، وتركت كل ذلك أمام باب حجرتي لتأخذهم نوارة، ربة منزلنا، واحتفظت بقليل من (التوست) كبديل للخبز الجاف، فأنا لم أعرف طعم خبز العامة، الذي يتناوله الزهاد، فبيتنا وثلاجاتنا ذات كرش منتفخ دائماً بما لذ وطاب.

جلستُ في وضع القرفصاء وضممتُ كفي في وضع الدعاء وبدأت مناجاة ربي بطريقتي، ظللت أناجي الله وأحادث العذراء، طعامي قليل، التوست وقليل من الماء.

مرت أيامي السبعة وقد تملك الضعف من جسدي، فصرت ألتقط أنفاسي بصعوبة كما وإنها في عمق الأرض السابعة وأنا التقطها برئتي الضعيفة ..

أحاول أن أفتح الباب وأنادي على أمي بصوت سدّ مخارجه الوهن فكان ضعيفاً..

أسقُط فاقدة للوعي ..لا أدري هل كانت إغماءة أم أن روحي قد سمت وحلقت إلى حيث لا زمان ولا مكان، فكنت أتأرجح بين لحظات في الماضي ورؤى جميلة وتحليق، حيث تلاحم مع الطبيعة غير المحدودة، فأرى العذراء تربت على كتفي، أفتح عيني لأجدني على سرير بإحدى المستشفيات وأمي بجواري ممسكة بكتفي، قصصت لها رؤيتي للعذراء، لتبتسم وتخبرني أنها هي من كانت تربت على كتفي، ولا شئ يمنع أن أراها فلا بأس، ودَعت أن يحقق الله لي أمنيتي في رؤيتها.

***

٢٠

- بابا، أنت لم تربني على أنني أنثى، فمنذ طفولتي وأنت تغرس في كوني "إنسان"، فلا تحدثني الآن عن جمالي ومصيري الطبيعي الذي يتوافق والفطرة، وعن الأمومة والزواج، إنه حديثٌ لا عهد لي به معك ولا أكاد أتذوقه

- هبة، أنا حبيبتي على وشك المغادرة والرحيل وأريد أن أطمئن عليك، ما كنت أبثه في عقلك وقت الطفولة كان سببه غروري بشبابي وقوتي فلقد كنت عفيّاً، سنداً لا يخيب لك، أما الآن فالوضع اختلف، أنا شيخ كبير، فجأة أحسست بإحساس أي أب يقتله القلق على أبنائه، كل ما يتمناه أن يرى ابنته مرتدية فستانها الأبيض ويسلمها لعريسها بيده.

ضحكت بصوت عالٍ، ضحكة حالت دون أن تخرج كلماتها مرتبة وذات معنى، لتمسك بضحكتها وتسأله في استهجان:

- تسلمني إلى زوجي؟! تقصد تنقل ملكيتي إلى رجل آخر كما الإرث!! ما هذا يا بابا؟! لا أصدق أن دكتور ثروت هو من يقول تلك الجملة التي تعترض المنطق وعقلي، هل هذا والدي الذي ألقى بي في حمام السباحة وأنا ما زلت في عامي الثاني لأتعلم العوم دون مساعدة

من أحد؟! هل هذا هو نفسه الرجل الذي قام بتسفيري لمواصلة دراستي العليا وأنا وحيدته احتراماً لعقلي وتقديرا لقدراتي ؟! بابا! رجاءً دع الأمور تسير كما خطط لها القدر لا تتعجل القادم، أنا لا أرفض الزواج، فقط هو ليس من أولوياتي

- نصري يحبك هبة

- ماذا؟!

- لقد انتظرك لسنوات رغم أنه رجل وسيم ومحامي ناجح وله معجباته ومحبوه، إلا أنه انتظرك ومازال.

- نصري صديق ..

- والصداقة من أرقى الأبواب التي تؤدي إلى زواج ناجح.

- ربما، أعدك اني سأفكر في الأمر.

"هبة امرأة ذات وجه بملمس بشرة الأطفال، بيضاء ذات شفاه غليظة بحمرة رُمانية، ذات أنف افطس بغير قبح.

بعيون زرقاء بلون سماء الصيف، واسعة، طويلة، رشيقة، ذات شعر طويل ناعم أسود كما لون النيل في ليلة شتوية، كثيرون يرونها زبيدة ثروت الفنانة وكأنها عادت من الخمسينيات، لكنها تتميز عنها كونها طويلة

وعصرية، جمالها وصوتها الرقيق كما قيثارة منحها حباً في قلوب من قابلتهم، وكم من رسائل حب ولوعة جاءتها من طلابها بلا توقيع..

كانت رغم أرستقراطيتها وجمالها وذكائها تتمتع بقلب متواضع وابتسامة مرحبة دائماً.

- ثروتي كن مطمئن البال فلقد جعلت مني محاربة وشكلت عقلي ووهبتني حباً وثقافة، إنها ثروتي الحقيقية وأنت ثروتي وأبي، لن أحضر لك ضرة يناصفك في قلبي..

- لا عليك، أنا أقبل ذلك العريس الضرة، فقط أريد أن أرحل وأنا مطمئن أنك في عصمة رجل محترم يقدر قيمتك ويحافظ عليك وليته يكون نصري، فهو ربيب بيتنا ويليق بك ..

لا تتعجل أبي، ما يقدره الله سيحدث، أنا بالفعل متعبة من النقاش في الكلية، ولست في حالة ذهنية جيدة حتى أتناقش في الزواج الآن، سأذهب لآخذ حماماً دافئاً وأذهب إلى الفراش لأستريح قليلاً وأستيقظ لنواصل الثرثرة، وقزقزة اللب، ومشاهدة التلفاز على أي برنامج ساذج لنريح عقلنا قليلاً.

***

٢١

استرخيت لدقائق أو ربما لساعات، وكان طاهر رفيق الرحلة والراحلة بجواري يتمتم بكلمات، ظننت أنه يحدثني فإذا به يدندن بكلمات أغنية، أظن أنها إما أغنية تركية أو فارسية، هذا الرجل يمتلئ بالغموض ..

أدرت رأسي في اتجاه الطريق الذي يجري على يميني كأنه حبيب يلاحق حبيبته وقد أنهكه التعب والوحدة، فلا رفيق له إلا حافلتنا وعدة سيارات انشغل راكبوها إما بالنوم أو مشاهدة التلفاز المثبت أمامهم أو بسماع الأغاني على المحمول، كل منشغل عنه، إلا أنا اخترت أن أؤنس وحدته وأشاهده يسير بجوارنا أو يسرع لاهثاً ليلحق بحافلتنا. حاول طاهر أن يجذب أطراف الحديث معي ولكني نذرت الصمت والتأمل مع الطريق، ابتسم وهمس لي بسؤال لم يكن غرضه أن أجيب عليه بقدر رغبته في النبش بداخلي واستخراج جنوني، وضعت السبابة على فمي مشيرة له بالسكوت ..

- هل نذرت لله صوما؟!

- ما أدراك بفكرة الصوم؟! كيف علمت بها؟

عاد إلى شروده وكأنه ترك جسده وغادرنا، وكنت في حالة من اجترار للأمس البعيد وصراع حضارتي التي كانت مزيجاً من شرق وغرب، لأفيق على سؤاله:

- ما معنى تلك القلادة المعلقة برقبتك؟

- إنها صورة امرأة تمسك هلالاً

- بل العذراء تحتضن هلالا

- أوك، نعم العذراء تحتضن هلالاً

- وحدة وطنية يعني.

(كان مستلقياً على المقعد ومبتسماً)

- بل توحيد

- كيف؟ التوحيد هو أن للكون إله واحد، أما ما ترتدينه يقول بأنك تقرين بأن هناك أربعة آلهة..

(وأطلق ضحكة تنم عن سخريته وسعة ثقافته أيضاً)

- لا أريد أن أدخل في نقاش غير مثمر.

- لن أناقشك ..أنا فقط أفكر في المعنى الذي تحتالين علينا بارتدائك تلك القلادة.

- احتيال؟!

- نعم احتيال.. إن كان هدفك إيجاد طريقة للدمج بين المنهجين.

- أنا لا أسعى إلى شئ، فقط أحب كليهما

- والحب أيضاً لا يكون إلا لمخلوق واحد، من أحب كثيراً لم يحب أحد.

- هذا إن كان الحب لشخص ولكني أتحدث عن حب فكرة.

- يبدو أن الفلسفة جعلت في عقلك أراض وعرة صعب اجتيازها.

- بل أهدتني المفاتيح التي تسهل لي دخول الأماكن التي يصعب على غيري ارتيادها، عندما سافرت إلى الصين، بالتحديد التبت دخلت مدينة "لاسا" عند نهر براهمابوترا، ومارست بعض الرياضات الروحية وخاصة "تاي تشي" والتأمل، اكتشفت مثلك أن الروح لا تتبع جسداً ولا ديانة، ومن السهل أن تسافر مجتازة الزمان والمكان، قد تسبقك إلى المستقبل وقد تلتقي بمن ماتوا، أي أن الوصول للخالق الذي وهبنا تلك الروح له عدة طرق وليس طريقاً واحداً

- لك حق، لكن الأزمة لا تقتصر في الوصول للرب، بل في البروتوكولات التي وضعتها كل ديانة ومعايير الصواب والخطأ، هنا تحدث الفرقة والاختلاف الذي يتصاعد ليصل إلى الخلاف والصراع.

- جميل أنك تجتهد لأجل الحقيقة مثلي.

- بل أنا فضلت الاتجاه إلى طريق آخر، وهو أن أعمل وأعيش، ولندع السماء والفلك لأهلها.

- اشتريت دماغك كما نقول.

- نعم، هذه النقاشات رفاهية لا تناسب مثلي، أنا أعمل أربعة وعشرين ساعة لكي أحقق أحلام زوجتي وأولادي، لا وقت للقراءة ولا للبحث عن الحقيقة ولا عن تفسير، نحن في طاحونة يا ڤاريم لا نشعر بأنها هرستنا إلا بعد أن يمر العمر وننظر في المرآة لنكتشف الشيب، وعندما نهبط أو نصعد السلم لنكتشف آلام الركبة والظهر، حتى هذه اللحظات لن تمنحك السلام الذي يتيح لك مناداة السماء والحوار معها.

- بل أي وقت مباح فيه أن تتحدث مع الله حتى أثناء نومك

- ربما!!

سكتَ وسكتُّ وراح كل منا في جولة مع الأرصفة والفضاء الملقى على جانبي الطريق.

***

٢٢

كانت أولى تجاربي مع التمرينات الروحية للتغلب على غلبة اللسان والجسد، حيث مارست أول أنواع الصوم.

لم أكن أتعمد إثارة حفيظتهم أو لفت أنظارهم لي، ولكن كانت سلوكياتي تصديقاً لما أؤمن به، كنت أحاول أن أخلق "هارموني"، انسجام بين شقي اسمي، لا أريد أن أعيش مع أحد طرفيه وأغفل الآخر، فأنا يروق لي أني ابنة ديانا وعز الدين وأعشق كوني ڤاريم..

طلبت من " نوارة " أن توصل قراري لأهل البيت وخاصة جدتي وأمي، لأجد طرقات خفيفة على الغرفة ثم دخول دون إذني،لأجد أمي أمامي تسألني بعربية ركيكة: ما المناسبة؟

- المناسبة أني أريد ذلك ماما، صومي لن يكون عن الطعام بل سيكون عن الكلام.

سألتني بالإيطالية وباستغراب: ماذا؟

- سأصوم عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بدءًا من الآن.

خرجت وصفعت الباب خلفها وهي تتمتم بالعربية والإنجليزية والإيطالية، وجميعها تقول: "أنجبت مختلة"!!

أخرجت سري الأعظم وهو تمثال العذراء، فأنا لا أخشى أمي بقدر خوفي من غضب جدتي، التي تعشقني وفي ذات الوقت لا تكف عن اتهامي بالجنون، إلى هنا والأمر لا يشغلني كثيراً، ولكنها تتمادى في الاتهامات والتعنيف ليصل الأمر إلى التلسن أمام أمي ومضايقتها، وأنا أشفق على تلك الأجنبية ذات العرق العربي، وأدبها الجم، وتحضرها، وقدرة تحملها التي تجسد لي صبر عبد مؤمن تحت رحمة سيده الذي يتهمه بالهرطقة ويتفنن في تعذيبه..

رفعت التمثال ووضعته على المكتب، وبدلت ملابسي برداء النوم الذي كان من القطن، بسيطاً بلا نقوش ، طويلاً، ووضعت وشاحي القطني أبيض اللون، ارتديته واستلقيت على الأرض أمام العذراء على شكل صليب وشرعت في الدعاء والحديث إليها في صمت، أحاديثي وأدعيتي كانت كلها مناجاة باطنية، ثم أغمضت عيني.

في اليوم التالي كان موعد ذهابي إلى المدرسة، وكما اعتادت أسرتي مني الغرائب كذلك مدرسيني، ولكن الجميع كان يكن لي حباً ، ربما لأني أبداً ما اشتكى مني طالب أو معلم، اللهم إلا مناقشات كانوا يصفونها بأنها جريئة وقد تفهم أنها تطاول على رجال الدين وبعض معتقداتنا، غير ذلك فأنا بالنسبة لهم لطيفة وطيبة ولم

أستغل يوماً منصب أبي أو نفوذه، فمشاكلي أقوم بحلها بنفسي أو نستطيع أن نقول إن مشاكلي لم تخرج عن باب المدرسة، فاسمي عصمني من الكثير..

كان اليوم حافلاً منذ الصباح، فلم أرد تحية، ولم أنبس ببنت شفة مع زملائي، إلى هنا كان الأمر هيناً حتى جاءت حصة اللغة العربية وكان لا بد من أن يوجه لي أستاذي سؤالاً، فأقف صامتة بلا رد، تعجب واستفزني كثيراً وكنت على وشك الاستسلام إلا أنني رسمت في ذهني مشهداً أني أقف بين العبرانيين ولابد أن أتمسك بمعتقدي، فهم المهرطقون ولست أنا.

انتهى اليوم بكم من الكوارث، كان آخرها استدعائي لمكتب مشرفة الدور من شكوى معلمة الفلسفة لازدرائي لها وعدم احترامها والرد على أسئلتها، وأيضاً لم أرد ورفضت أن أكتب مبرراتي حتى على ورقة، فحتى الكتابة هي نوع من الكلام سيفسد صومي..

عدت للبيت وقررت أن أتغيب اليومين الباقيين من أيام صومي عن الكلام.

مرت الأيام ثقيلة، فالأمر لم يكن يسيراً ولا بسيطاً، فالصيام عن الطعام والشراب أسهل كثيراً من أن تصوم عن الثرثرة..

كانت حصة اللغة العربية وسألني المعلم عن سبب تغيبي قلت، له كنت صائمة

- وهل الصيام يمنعك عن الحضور؟

- الدراسة تعتمد على الكلام وأنا كنت صائمة عنه

- ماذا؟!!

- نذرت لله صوماً لكنه صوم عن الكلام.

- تبع أي ديانة ڤاريم؟

- ديانة الله.

- لا المسيحية ولا اليهودية ولا الإسلام به صوم عن الكلام.

- ألم يكن زكريا نبياً؟

- بلى

- فأنا صمت كما زكريا الذي كان ينبئ بدين الله.

ضحك وضحك زملاء الفصل ولكني أثرت في ذلك اليوم حوارات استمرت طوال اليوم بيني وبين البعض وبين الآخرين ..

أفقت على صوت طاهر الذي كان كهمسات الشفق..

- هل تعتقدين أن هناك صوماً عن التفكير؟

لم يمنحني فرصة للإجابة فاسترسل في حديثه..

- أغلب الشرق العربي كف عن التفكير صوماً إرادياً أو ربما يكون صوم الفقر، الفقر من العلم ومن الدين

- وأنت تصوم؟

- ما يقفز بعقلي كثيراً إلى حد التخريف أنني لم أكف عن الرغبات التي تأن بجسدي وعقلي وروحي كما أنت.

- وما أدراك برغباتي؟ ألاحظ أنك تتحدث بلساني كثيراً وكأن بيننا معرفة سابقة.

- المظهر وطريقة نظراتك تحمل الكثير من التفسيرات لشخصيتك حتى الألوان التي تنتقينها لهندامك.

"ابتسمت وصمت قليلاً ثم واصلت الحديث"

- وما الذي يشت بعقلك إلى التخريف طاهر؟

- أنا دارس للصينية والأدب الصيني وتلك الحضارة، ولفترة قرأت في الفلسفة الشرقية وعلم الكلام.

- أها، وإلى ماذا وصلت بك تلك القراءات؟

- هل تسخرين مني؟

- حاشاي طاهر.. بالفعل أريد أن أعرف إلاما وصلت؟

- وصلت إلى المزيد من الأسئلة ولم أصل لأي إجابة.

- ما نوع الأسئلة التي زادت عندك وعن ماذا؟

- عن الله، الكون، الإنسان، الحقيقة، اليقين

توقفت ڤاريم عن الكلام وراحت في نظرة للفراغ حولها..

"هل بالفعل اصطدامي بطاهر كان إشارة؟ لا أؤمن بالصدفة وأصدق أن لكل لقاء معنى ومغزى يحتاج منا أن نفك رموزه، طاهر يتحدث بلساني ويفكر بعقلي، ما كل هذا التشابه والترادف بيننا، شيء يدعو للتأمل!!"

عادت من شرودها، لكن طاهر كان هناك راكباً شروده، أو ربما شغله توجعه من الصدام.

٢٣

شقة بالدور الأرضي بمنطقة أبي قير، ذات شرفة واسعة على شكل حرف "لام"، محاطة بسياج حديدي باللون الأزرق، لها مدخل بسلم خارجي ومدخل من الصالة، تتكون من ثلاث غرف وصالة مستطيلة تمتد إلى ممر طويل، على يمينه غرفة نوم وعلى يساره غرفة معيشة، وفي المواجهة مطبخ، والصالة تنتهي بـ (القرندا) في الطرف الآخر، وأنترية موديل الثمانينيات، وفي منتصف الصالة في مواجهة الباب، باب أكورديون يؤدي إلى غرفة أخرى بها مكتب ومكتبة على شكل نجمة معلقة بالحائط بها عدد من الكتب والروايات لأدباء روسيين وإنجليز وعرب، وبعض المؤلفات عن السينما ونجوم المسرح، وعدد من النصوص ملقاة على مكتبه الذي يتوسط الحجرة، تعلوه لمبة ذات غطاء مخروطي يسقط ضوؤها على المكتب بديلا للأبجورة، على يمين المكتب صورة لسيدة أنيقة في الخمسين من عمرها، ذات شعر قصير أسود بخصلات بسيطة بيضاء، يبدو من ملامحها الشبة الكبير بينها وبين مهتدى، على يمين الغرفة حمام (مودرن).

مهتدى لم يتزوج، خرجت كم من الشائعات عن علاقته بأكثر من فنانة، ثم تنتهي تلك الشائعات لتذوب كما حبوب من الملح، فلا تترك بحياته إلا المرارة والوحدة، قال ذات مرة في لقاء تليفزيوني إنه يفتش عن أمه داخل كل حبيبة وحينما يكتشف أنها لا تمتلك أيا من خصالها يبتعد وينساها تماماً.

لم يكن مهتدى الرجل الوحيد الذي يفتش عن أمه داخل الحبيبة أو الزوجة، فأعتقد أن الصورة التي يستخدمها بعض الرجال كوحدة قياس يتم بها تقييم المرأة، مدى اقترابها من ملامح أمه.

لم يكن جمال المرأة هو الجاذب الأكبر لمهتدى ولا حتى ثقافتها، ولكنه كان يفتش عن حنية أمه وأنوثتها وعطائها المفرط الذي لا ينتظر أي مقابل، إنه يتمنى امرأة تمنحه الحب ولا تُجهد عقله في النقاش والعناد، وهذا التناقض في شخصيته كان يبعد عنه الكثير من النساء، فرغم تربيته في فرنسا وثقافته الغربية، التي تدعو إلى التحرر والمساواة بين الجنسين، إلا أنه في أعماقه "آدم" الذي ينشد الأنس والأمان والوطن في امرأته..

يرى أن حياته بها من الضغوط ما يكفيه، فلا حاجة إلى المزيد من الصراعات والجدل مع شريكته، بل يجب أن

تكون سكناً لقلبه وعقله وجسده، والزوجة لابد وأن تكون حضناً يمنحه الحب والسلام .

تعرض مهتدى للكثير من المضايقات من الأمن؛ لتجاوزاته وشطحاته وحواراته التي كانت تلمح وتصرح بالاعتراض على ممارسات أو خروقات للنظام ضد حرية الإنسان، وتقاعصات الحكومات المتتالية عن النهوض بالبلد لكي تنال ما تستحقه من نهضة علمية واقتصادية ورفاهية اجتماعية، فكيف لبلد أنعم الله عليه بحضارة عريقة وبحرين وشمس طوال العام، ونهر وكنوز تحت الأرض وفوقها، وحتى الآن ما زال فقيرا ولم تخط لنفسها مكانتها المستحقة على خريطة العالم بعد!!

كل ذلك كان مبرراً لمنعه من اللقاءات التليفزيونية أو الورقية، بل وحجب عنه المنتجون لما يسببه من مشاكل، ورغم ذلك يكنّ له الجميع الاحترام والتقدير لنزاهته وثقافته وقدرته كمخرج ندر وجود مثله في الوسط الفني، والمسرحي بشكل خاص .

مهتدى من أسرة ينتهي اسمها ليرتبط برباط نسب مع الأسرة العلوية، ولكنه يحيا كما العامة ولا يشعر

بسعادته إلا حين يتناول وجبة الغداء مع عمال المسرح وزملائه من الفنانين.

جلس أمام مكتبه يتصفح نص "هيباتيا تعود"، وشرع في التفكير وسرح بعيداً، كان بجوار المكتب سبورة معلقة على (ستاند) خشبي، رسم عليها دائرة بداخلها اسم هيباتيا، تتفرع عن تلك الدائرة خطوط أحدها ينتهي باسم (ماجدا) وآخر باسم (سانتينو) وثالث باسم (أركون)، إنها خارطة لتوزيع الأسماء ذات الأدوار الرئيسية والثانوية في المسرحية ..

أدار موسيقى لعمر خيرت وراح في تفكيره، حتى رن جرس الباب، كان الطارق هو حسام.

***

٢٤

- ڤاريم، أبحث بين ثنايا عقلي عن معناه فلا أجد، هو مزيج بين قلبين وروحين رغم ذوبانهما إلا أنهما تنافرا بفعل الجنون، بفعل التحزب والتعنصر، وهذا السوار دليل نفي، إن جنونك لم يفرقه

جميل لو كنا نتمكن من إلقاء ما نكره ليختلط بتراب الطريق ويُمحى من الذاكرة ومن تاريخنا وعقولنا، ليته كان بالإمكان أن نسطر الأحرف الأولى من حياتنا، يكون لنا حق انتقاء والدينا وأسمائنا بل والوطن، ليتنا نستطيع، لكن ما حفر بالأمس لا يموت ولا يمكن التخلص منه بسهولة يا طاهر، ما حُفر على جدران الذاكرة إن سقيناه نما وتعمقت جذوره في كياننا، أما إن تركناه جف، ولكن سيبقى أثره كما الشوك.

وصلنا مدخل الإسكندرية فسألته: إلى أين تحب أن أوصلك؟

- إلى المعمورة، هناك فرع شركتي السياحية، لابد أن أعتذر لهم عن عدم قدرتي على العمل، لقد أضعتِ مني دخلاً كان سيكفيني شهراً ..

- أعتذر وأنا وعدتك بالتعويض رغم أني لا أفهم ما الذي أوقفك وسط الطريق ..

- كنت أزور أحد أفراد عائلتي ببنها وخرجت لعلي أجد حافلة أو سيارة تقلني إلى الإسكندرية، فكان قدري أن تقليني أنت أو تصدميننني، علمت الآن لم بعض الدول العربية حرمت قيادة المرأة،

قالها وهو لا يتوقف عن الضحك

- هل تعلم أني أحمل رخصة قيادة دولية؟! هل تكفي للاعتراف بأنني مؤهلة للقيادة أم لابد أن أكون ذكراً؟

- سنعود ثانية للنقاش الذي تبدأينه ولا تكملينه بل تكتفي بالصمت والشرود.

- دعنا من النقاش الفلسفي قليلاً وقل لي حسب الإحصائيات، كم عدد النساء اللائي يتعرضن لحوادث القيادة مقارنة بالرجال؟

ابتسم في ود وقال: لا شك أننا الأكثر في الحوادث والموت، ربما لأننا حين نقود نحاول أن نعترض ونتمرد على القوانين والقيود والهموم، فنتحدى الموت والإشارات التي صارت كما السلاسل الحديدية المربوطة بأرجل العبيد، تحد من حقنا في الجنون والحرية .

- أما نحن النساء فلا نستطيع أن نهرب من المسؤولية ومن احترام القانون والحدود، فنحن أكثر حكمة، نراعي كوننا أمهات وأن بين أيدينا أمانة اسمها الأبناء والبيت .. عندما نصل المعمورة أخبرني بالطريق..

- سمعاً سيدتي وطاعة.

***

٢٥

استغل حسام حاجة مهتدى إلى ممثلة وقرر أن يمنح دليلة فرصة للعمل معه في المسرحية، ويمنح نفسه فرصة التقرب منها والإحساس بالامتنان له خاصة أنها لم تشارك بعمل فني في مصر لسنوات طويلة ولم تقم بأي عمل له قيمة، فجميع ما شاركت فيه من أعمال كلها أفلام تجارية كما الصابونة، تشاهد ثم لا تترك بالذاكرة أو بالتاريخ أي أثر، وشاركت بعدة أعمال في الخليج لم يسمع عنها الجمهور في مصر، إنها فنانة ذات موهبة لكن ما انطبع عند الناس عنها أنها تعيش وتتربح من عريها .

تمنى حسام أن يكون له دور معها في السينما أو حتى على الفراش، فلا شك أنه رغم النفور الظاهري للرجال منها إلا أن بداخل الكثير منهم رغبة فيها..

اتصل بها وحدد معها موعداً للقاء مع المخرج، وبمجرد أن سمعت اسم مهتدى غمرتها السعادة وشكرته..

جاءت دليلة مهندمة بشكل يليق بلقاء مخرج عرف عنه جديته واحترامه، فارتدت جينز وبلوزة من القطن أغلقت أزرارها جميعاً إلا اثنين بأعلى الصدر، فلابد أن تبرز شيئاً ولو بسيطاً من أنوثتها لتثبت إمكاناتها، رفعت

شعرها على شكل ذيل الحصان واكتفت بأن تضع لمسات خفيفة من المكياج الذي يظهر جمال ملامحها دون مبالغة ..

حضر مهتدى ليفاجأ بوجودها، رحب بها ودعاها أن تشاركه قهوة الصباح وطلب منها الجلوس بالصف الأول من المسرح، إلى أن جاء حسام ليجدها قد حضرت قبل موعدها بنصف ساعة، ليحييها ويطلب من مهتدى دقيقة ليتحدث معه عن سبب وجود دليلة .

- أهلاً حسام، هل أنت من دعى دليلة؟

- نعم أعتذر إن كنت تجاوزت حدودي، ولكني أدركت حاجتنا إلى ممثلة لا تكلفنا الكثير، فقلت إن دليلة قد تكون مناسبة.

- لا. لم تتجاوز، ولكن لي سؤال، هل تعرف شيئاً عن بطلة النص هيباتيا؟

- لا، لكن أعتقد أنها قد تكون شاعرة؟

- أولاً، لي على فنان مسرحي مثلك مأخذان،

(كان يتحدث وهو ممسكاً بسيجارته ويتحرك في دائرة مركزها حسام)، الأول أنك لا تقرأ ولا بد أن يكون الفنان مثقفاً واعياً يعرف عن كل شيء شيئاً ويتخصص في شئ واحد يعرف عنه كل شيء، وأنت لا تفقه الكثير

عن المسرح الذي اخترت أن تعمل به، والكارثة أنك لم تبذل مجهوداً لتدرس الشخصية الرئيسية في النص بل وأيضاً لم تدرس شخصيتك بالعمل! حسام ..هيباتيا امرأة فاتنة ولكن لم يكن اهتمامها بجسدها بل بعقلها وروحها، هل ترى دليلة كما هيباتيا عالمة الرياضيات والفيلسوفة؟

(حاول حسام أن يرد على سؤاله ولكن قاطعه مهتدى قائلاً) : لا، لا يوجد ولو تشابه مع ظلها، هيباتيا في السماء ودليلة تحت الأرض، لن أضعك في موقف محرج معها وسوف أقوم بعمل "كاستينج" لها، الكارثة ان الدكتورة هبة ستأتي اليوم، أتمنى أن تكون جاهلة باسم دليلة حتى لا أحرج اسمي أمامها.

خرج مهتدى ونادى على دليلة وطلب منها قراءة دور هيباتيا، ومنحها نصف ساعة لتجهز لعمل البروفة..

***

٢٦

دخل فايز بيته بتؤدة، بخطوات واثقة اتجه ناحية البار البسيط على يمين الباب، صب لنفسه كأساً صغيراً من الفودكا، سكبه في جوفه مرة واحدة، ثم توجه إلى غرفة نومه، خلع حذاءه ووضعه بنظام في الجزامة المجاورة للباب ، ثم خلع البليزر وعلقه بعد أن قام بثنيه، أغلق الدولاب ونظر إلى المرآة متأملاً نفسه، لم يتخل عن ابتسامته التي ضبط اتساعها بالسنتيمتر، وضع إصبعه على جبينه بين حاجبيه باحثاً عن أثر لخط الزمن فلم يجد، شعر بالراحة والرضا عن مظهره الذي يرعاه، فهو مصدر لثروته، إنه الطعم الذي يجذب به صيده من النساء، هؤلاء الأخريات اللائي يعتبرهن الجسر الذي يدوسه بقدميه حتى يعبر إلى عالم الثراء.

فايز، رجل تعدى الثلاثين، اقترب من العقد الرابع، من أسرة فقيرة لم تمتلك إلا أبناءها، ورث جماله عن أمه وذكاءه عن أبيه، هما كل ما منحته الحياة له من مؤهلات نجح في استثمارها وترويضها لتخضع لأحلامه، لم يهتم يوماً بالحب ولا يعتقد فيه..

إنه يؤمن بالقوة بكل أنواعها، قوة المال، قوة الجسد، قوة الإرادة، قوة النفوذ، مسيحي الديانة، كما سجل في بطاقة

هويته ولكنه لم يعرف عن مسيحيته سوى أن الزواج أبدي، لذا يرفض أن يعتقل عمره مع امرأة واحدة، فلا داعي للزواج، كما أنها تخرجه من ورطات كثيرة، حين تقع بين يديه فتاة مسلمة يخرج من المأزق سريعاً بأنه لا يحل لها الزواج منه ولا يقبل أن يكون سبباً في إخراجها من معتقدها أو من عائلتها، فيخرج من تلك العلاقة كبطل وضحية..

خطى خطوات لا بأس بها حتى الآن، كان له الكثير من الضحايا من الفتيات والنساء، أثرت فيه بعض الوقت تلك السيدة الجميلة التي التقى بها في الغردقة، حيث كان يعمل كنادل، عشقته وكانت له كما المحظية، رغم زواجها منحته قلبها وجسدها ومالها، ضحت بكل شئ وانتظرت أن يمنحها بقعة بسيطة من قلبه وحياته، ألقى بها كما ورقة منديل ورقي مسح به فقره، توسلت إليه، أهانها بخيانتها وبأنها عاهرة منحته جسدها وهي في عصمة آخر، فلم تجد أمامها إلا اسوداد ليلها وقلبها، كانت عفيفة الروح، رفضت أن تواصل حياتها وهي الموصومة بالخيانة، ألقت بنفسها من غرفتها بالفندق لتسقط قتيلة..

حزن عليها عدة ساعات وواصل حياته مبرراً لنفسه أن الأوطان تبنى على دماء شهدائها، ومستقبله سيبنى على جسد بعض ضحاياه، إنها الحبكة الدرامية للحياة..

تنوعت ضحاياه فلم يردعه اختلاف الدين ولا فارق العمر أو الجنسية.

انتقل إلى الإسكندرية ثم الساحل ليستقر أخيراً هنا بشرم الشيخ، تلك المدينة التي يلوذ بها كل من ضن بالقاهرة وضوضاء الحضر، من أجانب وعرب..

على جدران غرفته، الكثير من اللوحات والبورتريهات ومنها صور فوتوغرافية كثيرة له في أماكن مختلفة، القى بجسده فوق السرير متخذاً من ذراعيه وسادة، متأملاً صورته المعلقة التي رسمتها له واحدة من ضحاياه، تظهر في تلك اللوحة صورته وهي تقف خلفه تنظر إليه في توسل، وهو ينظر إلى الأمام، أول مرة ينتبه إلى المعنى الذي تعمدت أن تضعه في لوحتها، كيف قرأت ما بداخله وكشفته، كان يرى فيها مجرد فتاة غنية مدللة مترفة لم تجد مشقة في الثراء، تركت له ما يريد وغادرت وبداخلها جرح لم تغفره له، تخلت عن الكثير وهي راضية على أمل ان يفهم أن السعادة ليست دوماً في المال، وحين

اكتشفت حمقه وغرامه بالمادة تركتها له وغادرت، وتركته مع مالها وغبائه، غاب للحظات ثم بدأت ڤاريم تقتحم عينيه والذاكرة،

"إنها امرأة مختلفة، صورتها كما واحة بكر، عذراء يروق لي أن وجهها لم يتعرف على فرشاة الزينة وأحمرها وأسودها، عيناها كما بحر عجيبة، فيروزي، شعرها كما حوريات الأساطير، هي مدار وكعبة اجتمعت حولها الحضارت والأديان جميعها، عندي يقين أنها أغرمت بي، ومعلوماتي عنها أنها من أثرياء المجتمع، صيد ثمين قد يغنيني إلى الأبد، ولكن أسرتها مخيفة ذات سلطة قد ينتقمون إن شعروا بطمعي بهم، إنها في حاجة إلى خطة مختلفة ومدخل آمن".

ثم غاب في حلم خلقه طموحه وطمعه، لماذا يتهم دوماً منهن بالطمع؟! أليس من حقه أن يتذوق الراحة تلك التي حرم منها حيث منحة الرب والدين؟ أما والديّ فلقد جاءا إلى الدنيا زاهدين فيها يريانها كما الجسر المؤدي إلى الجنة، بداخلهما رضا لا معنى له، ينظران إلى السماء دوماً في امتنان وقد تناسيا أني وإخوتي نتلهف على طعم الحياة ومذاق الثراء..

أنا اخترت حظي وركلت حياتي معهما، فليس ذنبي أن ألقيَ بي في رحم سيدة فقيرة، لن أظل مخنوقاً في حضنها ذي رائحة الزيت، الذي كانت تطهو به كل طعامنا في صيام دائم فرضه علينا فقرنا، لن تشم أنفي إلا رائحة العطور الباريسية وعطر النساء الثريات، أنا أقتنص نصيبي في مال الرب عنوة.

***

٢٧

ركبت سيارتها وتوجهت إلى المسرح لتلتقي بمهتدى، إنها المرة الأولى التي تلتقي به، فلقد تعارفا عن طريق الفيسبوك وأرسلت له مسرحيتها "هيباتيا تعود"، التي أبهرته وطلب منها أن يتولى إخراجها، مهتدى اسم يلمع في عالم المسرح المحترم الذي يقدم أعمالاً يرتادها المثقفون ومن لم يتم سحر عقولهم بتعاويذ اللهو والتسالي..

كانت لديها رغبة مُلحة لرؤيته، لقد شاهدت صورته في أحد البرامج التليفزيونية التي لا تعرض إلا على النيل الثقافية، كان كما بدا لها رجلاً ناضجاً تعدى الخمسين، أسمر اللون، يتميز برشاقته، فهو نباتي كما أخبرها في إحدى محادثاتهما على الشاشة الزرقاء، يرتدي نظارة لضعف نظره، راقت لها ملامحه وصوته الذي لامس شيئاً ما في عمق عمق روحها.

ركنت السيارة ثم دخلت باب المسرح وسألت عنه، فاندفع متوجهاً إليها تاركاً العامل..

- مرحباً دكتور هبة، أنرت مسرحنا المتواضع، لم أكن اتصور أن من كتبت هيباتيا سيدة بمثل هذا الجمال والصغر.

"ابتسمت في حياء"

- أشكرك

- اليوم ستشاهدين إحدى البروفات المهمة و(كاستينج) للفنانة التي ستلعب دور هيباتيا، أرجو ألا تحكمين على تاريخها، ما يهمنا هو إتقانها أداء الدور، أنت تعلمين أن المسرح لا يُدر ربحاً كبيراً، كما إننا نفتش عن وجه جديد بملامح تتقد ذكاء وبراءة، وفي ذات الوقت نحن في حاجة إلى فنانة تتحمل معنا حتى نخرج العمل الرائع هذا.

- تمام أكيد ما يهم هو الإحساس بالشخصية وتقديمها بشكل يليق بهيباتيا.

تدخل دليلة، تقف على المسرح، تتلعثم في كل الجمل التي كتبت بالعربية الفصيحة، لتقطع المشهد معتذرة أنها لم تقرأ النص إلا الآن وتطلب مهلة من مهتدي..

- لا عليك.. أعرف ذلك، تفضلي .

تنظر هبة إلى دليلة وتتذكر مشاهدتها لها بالمطار وثرثرتها معها، لكن بدا أن دليلة لم تتذكر هبة لأنها كانت وقتها في حالة سكر..

****

٢٨

دعى فايز ڤاريم إلى فنجان قهوة ببيته لمناقشة بعض المشروعات التي أعدها خصيصاً لها لتختار أحدها، ويا حبذا لو راقت لها جميعها!

صاحب فايز ڤاريم ليستعرض لها ديكورات بيته وما به من قطع أثرية، وبدى على ملامحه الزهو والاستعلاء، وما كان من ڤاريم إلا أن طأطأت الرأس مجاملة منها له واحتفظت بذائقتها لنفسها؛ فهي لم تعتد جرح أحد وترى أن الأذواق لا شك تتنوع وتختلف وما قد يبدو لها منفراً قد يراه الآخر مريحاً، فلم تعلق واكتفت بالابتسام، واصل الحديث عن البيت وعن تكلفة تشطيباته وكيف أنه لم يبخل عليه بماله ليظهر بهذا الرقي والجمال، لاحظت بعض اللوحات المعلقة وأن أغلبها، إن لم تكن جميعها، بورتريهات له وصور فوتوغرافية أيضا.

توقفت فجأة عند تلك اللوحة التي جمعته بفتاة تقف خلفه وكأنها تمسك بتلابيبه وهو لا ينظر إليها، بل ينظر إلى الأمام، وقفت طويلاً أمام تلك اللوحة، حاول أن يبعد نظرها عنها إلا أنها سألته عن الفنانة التي رسمتها ..

- اسمها أسفل اللوحة

- اسمها بريق؟!

- نعم

- اسمها يحمل كل دلالات الحياة.
- لكنه انطفأ سريعاً .
- هل ماتت؟
- لا، هجرتني .
- كيف ذلك؟! اللوحة تقول إنها كانت عاشقة لك .
- كيف عرفت؟
- رسمتك كأنك هدفها وأنت غافل عنها بتطلعاتك..
- تعالي لنجلس ونتحدث قليلاً عن بعض الأفكار التي أتمنى أن تلقى اهتمامك..
جلست على كرسي (فوتي) فرنسي، وجلس هو أمامها بعد أن طلب من أحد العاملين عنده عمل فنجانيَ قهوة، أحضرهما وانصرف ..
عندي الكثير من المشروعات التي ستتيح لنا فرصة المكسب الكبير والسريع في الوقت ذاته، فقط لابد أن أعرف إن كنت مهتمة بذلك وهل لك الرغبة في عمل مشروع هنا بشرم؟
- تفضل، أسمعك .
تكلم طويلاً ولكنها لم تدرك أغلب الحوار، فلقد غابت في حلم يصاحبها فيه حيث السكنى في كهف بأحد الجبال، ليخرج للصيد ويجلسان أمام النار لشي ذلك الصيد، يتناولانه ثم يرفعها على ذراعيه ليدخل بها إلى

مخدعهما الذي كان عبارة عن فرعي شجرة، مربوط بها سجادة صنعت من جذوع الشجر على شكل شرائح خشبية رقيقة، فوقها فرشت ملاءة من جلد أحد التماسيح..

- ڤاريم

- نعم، أعتذر فايز لقد سرحت قليلاً في كلامك، اعذرني فأنا لا قبل لي بأمور البيزنس وإدارة الأموال فلقد هربت وتنصلت من هذا العالم، أنا فرغت نفسي للفلسفة والترحال بقدر الإمكان ولا أريد أن يجر أحد أقدامي إلى أعتاب الصراع على البيزنس والبورصة، أستأذنك فأنا أحتاج إلى الاستعداد للسفر إلى القاهرة، لا تفهم كلامي بشكل سئ فايز..

- لا بأس ڤاريم .

قام بتوصيلها إلى الباب، ألقى عليها تحية المساء وأغلق الباب.

خرجت ڤاريم وليس بداخلها رغبة للنوم،فلم يتحسس النعاس عينيها ، كانت في حاجة للجلوس على الشاطئ لتعيد التفكير فيما قاله فايز وفي شخصيته، اتصلت بأحد أصدقاء الأسرة، والذي يعمل في الأمن، وطلبت منه الاستعلام عن فايز بحجة أنها ستذهب مع شركته في رحلة وتريد ان تطمئن إليهم .

***

تحزم حقيبتها لمغادرة شرم وأيضاً مغادرة حلم كانت صحت منه ؛كونه خائباً، بطله كان يرتدي الحمق شاهراً سلاحه معتقداً أن صيده غارق في سكرة العشق لكنه كان مكشوفا لها .. يرن الموبايل . تسرع ڤاريم لتتلقى مكالمة...

- نعم عمو عاصم، على الإيميل؟ تمام، آسفة على إزعاجك وأشكرك على مجهوداتك.

- سلامي إلى عز باشا وبلغيه بما فعلناه لخدمتك .

- طبعاً لك مني كل الود.

- "أنا أشعر بالغضب وبالقرف من نفسي؛ فأنا التي رفضت أي خدمات مستغلة اسم أسرتي، كيف أكون وصولية إلى هذا الحد؟!!

لكن، أنا لم أستغل اسم الأسرة في ترقية أو للتعدي على حق الغير، فقط كنت في حاجة لأن أفهم تاريخ إنسان شعرت تجاهه بمشاعر راقية ..

فتحت اللاب توب وتصفحت ما تلقته من رسائل وكان أهمها صوراً تخص فايز، ومعلومات موثقة عن ورود اسمه في قضية انتحار سيدة أعمال ومعلومات عن استغلاله لها وأخريات، وشيكات بمبالغ كبيرة باسمه من تلك السيدات..

جلست في ذهول والدموع تتساقط من عينيها دون أن تشعر بالوقت ..أغلقت اللاب توب ونهضت لتأخذ حماما لعله يهدئ من الحريق المشتعل برأسها وصدرها ..
لم تخرج من الفندق في ذلك اليوم، تتلقى مكالمة من فايز...

- أهلا فايز

- أين انت؟

- بحجرتي.

- ألن نلتقي؟ لقد رتبت لك جولة بحرية لم ولن تعيشينها

- سألتقي بك غداً فايز، اليوم راحة لأنني أشعر بالإجهاد

في الصباح حزمت ڤاريم حقيبتها وتركت رسالة على الإيميل الخاص بفايز، وعادت إلى شقتها بالقاهرة!

٢٩

ما يجعلنا نواصل الحياة والتشبث بالغد هو الأحلام، الحلم والهدف كما السراب في الصحراء، رغم أنه مستحيل الإمساك به إلا أنه دائماً ما يكون الدافع الذي يجعلنا نتحدى العطش والجوع واليأس، لنواصل المسير، نحن بلا حلم، بلا غد، نحن بلا عطاء، بلا تضحية ومنح، كما صعيد جرزا "

***

التناقض يا دكتور هبة أنك تتحدثين في الأدب وحرية الفكر حتى أننا نرى فيك ناكرة للأديان، وتقتبسين من القرآن آياتا تجعلنا نعتقد في تعصبك للإسلام، ثم تنتقلين إلى نصوص من الإنجيل والعهد القديم مما أرفق مع اسمك الكثير من علامات الاستفام؟ بماذا تؤمنين؟

"كان نقاشاً بين هبة وطلابها بمكتبها بالكلية، فلقد اعتادت تلك اللقاءات ولم ترفضها ولم تمل منها"

- أتمنى أولاً أن يكون من أتحاور معه على درجة من الوعي حتى يتفهم رسالة المعلم، أنا أنقل لكم الأفكار وأتمثلها على المنصة كما أراد لها صاحبها، لا علاقة لي بفكر أديب أو فيلسوف أو فنان، أنا ناقلة ومؤدية لكل شخصية، أما عن الدين، فلا أدري لِم يكرس المجتمع

جزءاً كبيراً من اهتمامه ووقته للبحث خلف الهوية الدينية لشخصيات قدموا للعالم خدمات وثقافة بل وحضارة، الدين علاقة بين الإنسان وربه لا ثالث بينهما، ومن الحمق أن نعتقد أن الظاهر انعكاس لتدين الإنسان، الأفعال هي الدليل، وما يهمنا هو المجتمع والأرض، أما علاقتنا بالسماء فلا حق لنا في هذا السؤال أو عن هذه العلاقة، إنها حرية شخصية.

"طرقات على الباب، تطلب هبة من الطارق الدخول، كان عم شكري الساعي، ترك على مكتبها رسالة قائلا:

- أعتذر يا دكتورة، أحدهم ترك هذه الرسالة بـ (الكانتين) وقرأت اسم المرسل إليه وجدتها تخص سيادتك.

- شكراً يا عم شكري ..

انصرف وأغلق الباب ..

- مضطرة إلى الانصراف يا شباب .

خرج الجميع، لملمت أشياءها ووضعتها في حقيبتها، وضعت الخطاب في الحقيبة وأغلقت الباب وانصرفت لتستعد لموعد لقائها في المسرح .

***

٣٠

وصلنا إلى المعمورة، ساعدته في الهبوط من السيارة، طلب مني الانصراف وشكرني، حاولت أن أقنعه بأن أنتظره لكي أقله إلى البيت ولكنه رفض واكتفى بأن طلب مني رقم تليفوني ليطمئن عليّ من وقت إلى آخر، وسألني أين سأنزل بالإسكندرية، لم أجب واكتفيت بأن أخبرته بأنني أتواجد بمكتبة الإسكندرية بعد الظهيرة كل يوم، فأنا أجمع بعض المراجع التي ستساعدني في الماجستير.

ركبت السيارة وواصلت رحلتي إلى الشاليه، وهناك قرعٌ في عقلي وابتسامة تتسع ، كيف ذلك وأنا أعلم أنه متزوج؟! يبدو أن لهفتي أن أحب وأن أتخلص من فوبيا الارتباط بعلاء جعلاني أحلم داخل عقلي بحذاء سندريلا الذي أجربه على قدم كل من ألتقيه، قد يكون الفارس المنتظر، لكن لا شك أنك مخطئة جداً هذه المرة، أفيقي، لكن هذا الشعور ليس حباً بل راحة وصحبة أستمتع بها، لماذا لم التفتُ إلى طاهر حين غادرت وكأنني كنت أتمنى أن أنفض عن كاهلي تلك الحمولة؟! على الرغم من أنه كان مهذباً مثقفاً، لكنه كان متمرداً أيضاً، رافضاً لكل ما دَونه كتاب التاريخ ويعقب بسؤال يكرره كما البسملة: "وما أدراني أن ما سجل كان صدقاً وأن من قام بتسجيل الأحداث كان

صادقاً، فالجميع كاذبون والتاريخ يكتبه المنتصر والحاكم ؟!"..

كلماته تدعو إلى طرح سؤال فلسفي جديد، ابتسمت فجأة، تذكرت ما قاله عن زوجته النكدية لترن ضحكة لو لاحظها المارة لقالوا: "إنها جُنت وتتحدث إلى نفسها".

قص لي طاهر كيف أن زوجته اكتفت بإنجاب طفلين وتخلت عن دورها كزوجة، وكأن لسان حالها يقول: لا بد أن تموت يا طاهر كما ذكر النحل الذي ينتهي دوره بعد التخصيب فيموت منزوياً .

واصلت رحلتها بالسيارة وهي تشعر بالإجهاد البدني والنفسي، فمحادثة طاهر أرعبتها لبعض الوقت، لولا أنه كان رجلاً مهذباً وراقياً، لاستغل ذلك وعرضها للإهانة أو طلب تعويضاً كبيراً، حمدت الله أن انتهى الأمر عند هذا الحد ..

بمجرد وصولها إلى الشالية ركنت سيارتها ودخلت لتلقي بكل شئ على الأرض، حقيبة ملابسها، وحقيبة اليد، والمفاتيح، وصورة طاهر، وقبلها صورة فايز وعلاء، لتلقي أيضاً بجسدها على الأريكة المجاورة لباب الشاليه وتغط في نوم عميق.

٣١

- مساء الخير

- مساء الخير

- مهتدى البوقيري، مخرج مسرحي

- أهلا بحضرتك، طبعا نجم ومن لا يعرفك؟!

- أرجو ألا تعتقدي أني أغازل لكنك أخذتِ نظري ولم تغادرك عيناي لأكثر من ساعة وأنت غارقة في القراءة.

- إن لم يكن ذلك غزلاً فماذا تسميه؟

- لن يكون من اللائق أن نتحدث هنا فالمكان للإطلاع

- هل سأكون متجاوزا لو طلبت منك أن نخرج للتحدث قليلاً في الكافيه؟!

- لن أخذلك سألحق بك، فقط سأنهي ما بيدي.

- تحياتي ..

أنهت ڤاريم قراءة أحد المراجع في الفلسفة اليونانية وأعادته إلى الرف وغادرت إلى الكافيه.

- أهلا بك هيباتيا .

- ليتني كنتها،

- ماذا تشربين؟

- شاي أخضر

نادى على النادلة وطلب منها قهوة سادة والشاي

- أنا من الشخصيات التي لا تستهويها الثرثرة، قاسٍ في قراراتي، لا أجامل في عملي، أفتش عن فتاة مثقفة راقية تكون هيباتيا، عمل ملحمي له رسالة، يجب أن تكون بطلته قادرة على إيصال تلك الرسالة وإقناع المشاهد.

- أسمعك جيدا، لكن ما دوري أنا ؛فأنا لست ممثلة؟!

- ربما تسمعين عن مهتدى البوقيري المخرج لكنك لم تعرفي قدراتي، أعتبر نفسي كما فنان له قدرة على نحت الحجر إلى ڤينوس، كم من فنانات وفنانين لم يكن لهم في التمثيل جعلت منهم نجوماً في سماء المسرح والسينما،ولي القدرة على جعلك ممثلة مسرح تنافس أسماءً كما العلم، هل سبق ومثلت؟

- نعم مثلت بمسرح الجامعة.

- جميل، البدايات متوفرة..

- لن أعطلك، هذا الكارت به رقم الموبايل وأنا متواجد بالمسرح يومياً ما عدا الثلاثاء أقضيه هنا بالمكتبة، أنتظر منك اتصالاً فلك الحق أن تطلعي على النص وتجربة الأداء، بعدها قرري وأنا لن أبحث عن غيرك، فأنت هيباتيا، ملامحك وعيناك وانتقاؤك لزيك، كل ذلك

يعلن أنك هيباتيا، ما اسمك فأنا لم أتعرف عليكِ حتى الآن، من أنت؟

- ڤاريم عز الدين، معلمة فلسفة وأقوم بعمل رسالة الماجستير في فلسفة العصور الوسطى.

اكتفت باسمها واسم والدها ولم تكمل باقي الاسم حتى لا يصل إلى والدها إمبراطور البيزنس

- ڤاريم؟! ما معناه؟

لم ينتظر إجابتها على سؤاله بل اكتفى بأن قال :

- ستحكين لي بلاشك معناه، وما وراء تلك القلادة التي تحتضن رقبتك بل وحكايتك، فأنا موقن أن ثلاثتكم وراءه حكاية، وحكاية شيقة جداً.

- مَن ثلاثتنا؟

- اسمك، القلادة، وأنت، ڤاريم! سنتناقش لاشك في ذلك فيما بعد لكن اسمك اسم فني جدا، ممكن رقم موبايلك؟

كادت أن تقدم له الكارت إلا أنها تراجعت وأخرجت الموبايل وأخبرته بأنها سترن عليه، وعليه أن يسجل الرقم.

استأذن في الانصراف وتركها في حالة من التخبط والاستغراب .

***

٣٢

ما أصدق الأرقام والإحصاءات!
لا يوجد أدق من علم الرياضيات، فالحكم دائماً إما بـ (صح أو خطأ)، لا وسط، لا وجود لكلمة أشك أو ما بين الطرفين، الآلهة نظمت الكون في نظام حسابي وبمقاييس رياضية دقيقة، وكذلك النجوم والمسافات بينها، حددت برقم لا يتجاوزه أي نجم لفلكه.
لتنتقل إلى الحديث عما وراء الطبيعة، الروح، تعددت موضوعاتها وما زال الجمهور ينصت في اهتمام وكأنها تغني كما البلابل والكل مُنتشٍ..
"القلب ينبض، بعد أن يدرك العقل من نحب يعطي الأمر إلى القلب التابع لينبض عشقاً"
أنهت محاضرتها، وبالأسفل في أحد المقاعد جلس رجل وسيم، أسمر اللون، طويل، يتبعها كما راهب يتعلق بالسماء، ينصت إليها في لهفة وحب أقرب إلى التقديس، إنها معجزة تلك الهيباتيا بل هي إلهة، لا يجب أن نتدنى بهذا الجمال لننعت به امرأة، إنها تهبط من السماء كلما حان موعد إلقاء ترانيمها التي يسمونها بالمحاضرة، إنها المعبود الذي يجب السجود في حضرته.
تنهي المحاضرة بأسئلتها الثلاثة :

من أنا؟ من نكون؟ وما الخير؟ إلى أين نرحل حين ينتهي دورنا في الحياة؟
فلا موت.. إنها مغادرة إلى عالم آخر أكثر كمالاً حيث الحق، حيث الخير، حيث الخلود.
تصفيق حاد ودموع تذرف وشوق لملامسة تلك المقدسة..

***

٣٣

انصرف مهتدى تاركاً ڤاريم في حالة من الانتشاء الفكري، ولهفة لتجربة جديدة ممتعة، فلقد كانت تشعر بالتحليق حين كانت تمثل بمسرح الجامعة، وقد لفتت أنظار الكثيرين من هواة المسرح، ولكن حجبها عن مواصلة هذه المتعة وفاة والدتها وغيابها في التيه بعد أن سحبت أمها يدها منها،

نعم فلقد كانت طفلة تائهة تفتش عن أمها فلا تجدها، وكلما طرق قلبها الحنين ذهبت إلى الكنيسة لتتلمس رائحتها وتبكي، لتعود لتسمع اللوم والتكفير من جدتها .

أمسكت القلادة المعلقة برقبتها وكأنها تتحسس هويتها، خرجت من المكتبة لتجد طاهر واقفاً مبتسماً ..

- يالها من مفاجأة! ألم ينصحك الطبيب بعدم الحركة؟!

- لم أستطع على بعادك صبراً.. "فارداً ذراعيه كممثلي المسرح"

ضحكت ورفعت يدها لترفع خصلات انزلقت على وجهها لترسم لها (بورتريه) خاطفا لقلبه"

- هيا اصعد إلى السيارة لقد صرت ذنباً لا يغتفر يا طاهر، اعتقدت أنني تخلصت منك .

- عليك القيادة وعليّ الغداء، سأدعوك على طعام صيني

- ربنا يستر إياك أن تكون الوجبة عبارة عن كلب أو قطة .

-لا تقلقي فهم مسلمون صينيون .

٣٤

أنهى سامي الاجتماع مع مجلس إدارة شركاته لمناقشة بعض القرارات الخاصة بفتح فرع للشركة بالجزائر، ومن سيتم ترشيحه لتولي رئاسة تلك الشركة، جلس محاولاً الاسترخاء مُغمضاً عينيه ليقتحم والده خلوته..

- بابا! تفضل .

- سامي، كنت منذ قليل مع أحد كبار مسئولي الدولة واقترح عليّ اقتراحاً يجب أن نضعه في الاعتبار.

- ماذا؟

- مجلس النواب .سيتم إجراء الانتخابات بعد أربعة أشهر وأفكر أن أرشح نفسي أو أرشحك أنت.

- بابا ! لا يستهويني العمل السياسي ولا أريد أن يصب الإعلام ضوءه علي أو على أسرتي .

- الأمر ليس اختياريا للأسف إنها أوامر.

- إذن فلتكن أنت المرشح واترك لي الإدارة .

- كما تحب، لكن هناك مشاكل مع الشركة المنافسة والأمر يحتاج منا وقفة جدية، أعتقد يا سام هنا سيكون كرسي داخل المجلس أكبر حماية وتكفينا الحصانة، - أين علاء؟!

- ذهب لمتابعة العمل في الموقع بمدينة أكتوبر.

- كيف يغيب عن اجتماع بهذه الأهمية؟!

- أنا من طلبت منه متابعة الموقع .
- بابا.. لماذا لا نرشح علاء للمجلس ونركز نحن في عملنا؟
-علاء ابن أخي وأحبه ولا أستطيع أن أتخلى عنه، فهو يحمل معنا هموماً كثيرة، لكن هذا الكرسي سوف يمنحنا صفحة في التاريخ، ليس هذا فقط بل سيفتح لنا أبوابا إلى مزيد من النجاحات والعلاقات ولا يجب أن نتركه لأي إنسان، إما أنت أو أنا أو ڤاريم، ليت أختك تلك التائهة كانت معنا لوفرت علينا الكثير، لكن ماذا أقول، لم تأخذ من العائلة إلا الاسم، حتى أمها لم ترث عنها تطلعها وذكاءها الاجتماعي، لم ترث منها إلا جمالها فقط..
- ألم تحاول أن تقنعها بالزواج من علاء؟ ربما سيساعد ذلك في إقحامها في المجموعة ..
-لا، لا أستطيع، فأنا ضعيف أمام دموعها ولا أريد أن أعرضها لضغط نفسي مرة ثانية، فلقد مررنا بفترة عصيبة لا طاقة لي بالتعرض لها ثانية .
- تمام أبي فكما اتفقنا، أنا سأتفرغ للشركات ومعي علاء وطنط عبير، وحضرتك واصل عملك السياسي وسأكون معك داعما..
- على خيرة الله .

٣٥

عادت هبة إلى البيت تلقي بحقيبتها على الكنبة المواجهة للباب، تدخل غرفتها لأخذ المنشفة والبرنس وتتجه إلى غرفة أبيها تنادي عليه، تطرق باب غرفته، لا مجيب.. تتجه إلى الحمام لتأخذ حماما، فلقد كان اليوم مرهقاً لها من كم المحاضرات واللقاءات مع الطلاب..

تخرج من الحمام تقلب في الخطابات التي وصلت إليها وخاصة ذلك الذي أحضره لها عم شكري، تفتح الخطاب لتفاجأ برائحة طيبة وكلمات من يمين السطر تعلن عن رسالة عشق، تأملت الظرف والخط لعلها تستطيع أن تخمن لمن كانت تلك الكلمات الرائعة نظماً والراقية تعبيراً..

لم تكن تلك الرسالة الأولى لها من ذلك النوع من الرسائل وأيضاً لم تكن الأولى من نفس المرسل، فالخط هو ذاته، وانتقاء الكلمات هو نفسه، والشعر المرفق ينبئ عن شخصية مثقفة ومطالعة للأدب العالمي وخاصة الأدب الروسي، لقد توصلت إلى بعض المعلومات عن كاتب الرسالة ولا شك أنها تقترب من معرفة شخصيته، ألقت بالخطاب على الأريكة وتابعت التلفاز لتشاهد ذلك البرنامج لمحاوره، الذي عُرف عنه النهم للشهرة حتى لو كانت على حساب سمعة أبرياء، استمعت لهجومه على تلك الفنانة التي ألقت بتحية الصباح وهي بملابس النوم ولم تغادر فراشها وقد كشفت عن جزء لا بأس به من جسدها، لم تكن ممن

يعيرون تلك البرامج أي اهتمام ولكن شغلها بطلة تلك الهجمة وصاحبة أعلى نسبة مشاهدة، جلست كعادتها تحلل شخصيتها وتحاول أن تغوص داخل عقلها لتصل إلى تحليل لتصرفها، تسمع صوت المفتاح، يدخل أبوها
- أين كنت بابا؟
- كنت أنهي بعض الإجراءات الخاصة بالمعاش .
- حبيبتي، مت من الجوع وأنا أنتظرك، أرى أنك تشاهدين التلفاز وغارقة في البرنامج،
- سنتحدث في ذلك بعد الغداء..
دخلت لتعد الغداء وجلس ثروت مهموماً، ممسكا الريموت، وفجأة يلمح الخطاب الملقى على الأريكة بجوار حقيبة ابنته، يمسك به فضولاً ويقرؤه ...

٣٦

نهضت ڤاريم من النوم لتأخذ حماماً بارداً، تُخرج من حقيبتها شروالاً شامياً بتطريز من خيوط السيرما الذهبي، مما زاد من تفرده أنه أسود اللون، وأخرجت (تي شيرت) أخضر باهت بلون عينيها، رشت قليلاً من العطر، حررت شَعرها وتركته كما هو مجعد نتيجة النوم بعد يوم مرهق وتوجهت إلى المسرح..

ربما أهداني القدر منفذاً للخروج من تخبطي، لأنشغل بعمل يأخذني من التفكير قليلا، فالدراسة الفلسفية زادت من تعقيد الطريق الذي أفتش عنه للوصول إلى الحقيقة، وقد أجهدني ... أحتاج إلى ما يُروح عني وينقلني إلى وجهة أخرى تنقذني من نفسي..

***

٣٧

- هيباتيا ذات الرداء الأزرق قاطنة السحابة الرمادية، التي تنتعل النجوم وتتقلد قوس قزح، اخرجي علينا حتى يخرج في ظلك النهار، يا من على كفها الأيمن تسكن الشمس وعلى كفها الأيسر يقطن القمر، متى سيهطل من خصلات شعرك الغيث حتى ترتوي عيوننا وقلوبنا وتثمر الأرض..؟

أنعمي علينا بنغمات صوتك حتى تنفرج الأحزان وتقام الضحكات عرساً على الوجوه.

- أنا حواء، إيڤ، عشتار، إيزيس، أنا منبت الحياة، تُستولد من روحي الملوك، الصالحون والطالحون، ومن طيني تخرج البيوت والمعابد، القرى والحضارات، ومن رأسي تأله الحكمة، أنا ناثرة المعرفة.

"تصفيق حاد من كل الحضور، ممثلين أو عمال، كل من اختبأ خلف الكالوس حتى دليلة تتقدم لتهنئ ڤاريم على روعة أدائها.."

يقف مهتدى صامتاً وكأن على رأسه الطير أو في جلسة صوفية، يتحرك صوب ڤاريم مقبلاً جبهتها فتدفعه عنها في خجل..

تنظر هبة إليهما في إعجاب وتعلو وجهها بسمة رضا، يمسك مهتدى بيد ڤاريم ويتجه بها إلى هبة .

- د.هبة، إليكِ هيباتيا أو ڤاريم

- أهلا هيباتيا أو ڤاريم، اسمك جميل رغم أني أجهل معناه .

- أهلا د.هبة

- ڤاريم، د.هبة هي مؤلفة النص.

- شرف لي لقاؤك.

- وأنا سعيدة بالتعرف على فنانة مثقفة مدركة لكل جملة تخرج من فمها.

جلس الجميع يتناقشون ويضحكون، يتنقلون في الحوار في موضوعات شتى أغلبها عن هيباتيا..

ڤاريم : أنا لم أمثل هيباتيا فأنا أشعر أنني هي.

د. هبة، في داخل كل منا، رجل كان أم امرأة، مفكر كان أم بائع خضار، جزء من هيباتيا.

كانت دليلة صامتة أغلب الوقت ولكنها كانت تشعر بصدق كل كلمة تخرج من فم د.هبة وڤاريم، وقد تولد بداخلها صراع ما بين الإعجاب بهما والغيرة منهما، فلقد تحدثت كل منهما بكلمات ثقيلة في النطق إلا أنها لامست ما بداخلها من أحاسيس، لتنطق دون تخطيط

منها: أنا أيضاً هيباتيا، أعاني تجاهل المجتمع وقسوته بل وادعاءه أنه يمتلك صكوك الغفران ومفاتيح أبواب الجنة ..

"يقاطع مهتدى كلمات دليلة": هل تتقنين الرقص ڤاريم؟

- أي نوع من الرقص؟

- طبعاً المفروض أن يتمكن الفنان من كل أنواع الرقص أو يعرف القليل عن كل نوع، لكن أنا هنا أسأل عن التانجو، فمسرحية هيباتيا بها انتقال زمني ما بين القرن الخامس الميلادي وعصرنا الحالي، وهناك رقصات قديمة وحديثة تتخلل العرض ولها أهمية كما الحوار ولا يمكن الاستغناء عنها.

- أعرف التانجو.

- إذن انهضي وامنحيني يديك وساقيك وقدميك ..

نظرت ڤاريم ولم تغادرها الابتسامة وسألته في دهشة:

- ماذا؟

- سنرقص.

"أمسك بيدها ولم يمنحها وقتاً للتفكير..

- ڤاريم هاتي يدك اليمنى، ارفعي رأسك، انظري لعيني ودعي جسمك لي، تابعيني واتركي نفسك.

(موسيقى)

"يرتفع صوت (لارا فيبيان) بأغنية "Je suis malade"، يتحرك مهتدى وبين يديه ڤاريم كما عروس يلف بها المسرح، وكانت الإضاءة تتابعهما، كان مشهداً رومانسياً أخاذاً..

وغابت ڤاريم في حلم وتركت نفسها له، لم تشعر إلا وهي تردد كلمات (لارا فيبيان) وتسري من عينيها دموع لا تدري لِم وكيف؟

وقف الجميع ليشاهدوا ذلك الثنائي وتلك الرقصة التي كانت تحتوي الكثير من الحركات التي تعبر عن الكلمات، والتي فهتمها ڤاريم وأتقنت أداءها مع مهتدى.

كانت هبة تراقب في إعجاب ولكن اعتراها شئ من الغيرة، فلقد تمنت أن تكون في مكان ڤاريم وتكون مع مهتدى "ديو"، ثنائي راقص، فهي أحق به منها، ثم شغلت نفسها بالنظر إلى دليلة، فهي شخصية تثير بداخلها الفضول ككاتبة ..

"تأملتها هبة في صمت، وتذكرت تلك اللقطات التي شاهدتها لها، ولم تنطق بكلمة، اكتفت بالتأمل والإنصات إلى تلك الشخصية التي أخذت منها العين والأذن والتفكير.

يطول الحوار وتتلاشى الدقائق ثم الساعات، لينتبه الجميع لتأخر الوقت، تستأذن د.هبة في الانصراف،

وتعرض على الحضور أن تقوم بتوصيلهم، فيقوم مهتدى بتوزيع الأعداد، من سيصاحب د.هبة ومن سيصاحب شوكت، قال حسام إنه سيصاحب دليلة، أما مهتدى فقد طلب من ڤاريم أن تقوم هي بتوصيله فهي في طريقه.

شعرت د.هبة بشئ من الغيرة صحبها علامة حزن ارتسمت على وجهها الجميل، حيّت الجميع وانصرفت وقد أغفلت أن تمد يدها لتسلم على مهتدى وڤاريم.

***

٣٨

لاحظ مهتدى نظرات الإعجاب في عيني هبة، أما هو فقد جذبته للحظات ڤاريم، ڤاريم كحالة وليست كممثلة، شخصيتها بها الكثير من الجوانب التي تجعل منها مادة لفيلم سينمائي أو عمل مسرحي يطرح الكثير من الموضوعات الحيوية والفكرية المثيرة، أما هبة فهي كما الأميرات، في حاجة إلى رجل يتعامل مع جمالها وعقلها كما لوحة داخل معرض للقطع الفنية الثمينة، ممنوع اللمس أو الصوت العالي، واقتناؤها لا يتاح إلا للأثرياء.

هبة امرأة تُدلَّل ولا تدلّل، هبة سيدة لا تقبل الترويض، خطر على من يحبها، ومن مثلها تجهد الرجال فكراً وقلباً، وڤاريم أكثر تعقيداً وإثارة ولكن سيكون لها مستقبل فني باهر.

دليلة، امرأة ينطق جسدها وعيناها بالأنوثة، بها تلك الشامة التي تعلو شفتيها كما أمي، لكنها كممثلة ينقصها الكثير من الثقافة والتدريب، لكنها لا تصلح لعمل مسرحي جاد وهام كنص هيباتيا، ربما تصلح لأن تلعب دور إغراء أو دوراً كوميدياً، لكن هيباتيا، مستحيل!!

أضحكني أداؤها ولكن بعد أن أهنتها بتجاهلي لها شعرت بشئ من الغضب من نفسي، كيف أهينها بهذا

الشكل؟! لقد تحملت الإهانة وكانت نظراتها توجه لي صفعات ولوم أرق ضميري، سأتصل بها أعتذر.. لا لن أعتذر فالعمل لا مجاملة فيه ولابد أن نفصل بين العمل وبين العلاقات، ربما ألطف بكلماتي بعضاً من تصرفاتي القاسية معها، أمسك بالموبايل ورن على دليلة

- ألو معك مهتدى البوقيري سيدة دليلة

- أهلا أستاذنا، ما هذه المفاجآت؟!

- هل يجوز لي أن أدعوك إلى كوب عصير أو آيس كريم ؟

- شرف لي أستاذ مهتدى، لكن ماذا لو دعوتك أنا على وجبة غداء من صنع يدي؟!

- ماذا ستطبخين لي؟

- ما رأيك في صينية مسقعة؟!

- حقا؟! لكن مسقعة بلا لحم، قرديحي يعني لا أحب المسقعة باللحم..

- كما تحب، أنتظرك غداً

- طبعا سأحضر لقد تمكنت من إغوائي

ضحكت سعادةً بالمكالمة وبقبوله دعوتها.

أغلق الموبايل ودخل ليستعد للذهاب إلى المسرح

٣٩

كانت خطواتها وهي تراقصه بلا صوت، فلقد كانت تلامس الهواء، يرفعها كما دمية رشيقة أو لاعبة باليه، كانت ترقص في سعادة كأنها في الجنة، حيث لا معنى للزمن ولا ضرورة للمكان، لا يشغلها إلا عينيه ولمسات يديه ليديها وخصرها، وصوت ماجدة الرومي، وكلمات نزار: "يسمعني حين يراقصني كلمات ليست كالكلمات، يأخذني من تحت ذراعي، يزرعني في إحدى الغيمات.. وأنا كالطفلة في يده كالريشة تحملها النسمات"، ثم تغيب في قبلة من شفتيه أذاقتها طعماً بمذاق التوت البري، لتشده من بين يديها فتاة ترتدي قناعاً على وجهها، وفستان سهرة يفتقد للذوق، وتفوح من جسدها رائحة عطر رخيص، لكن كان كل جزء من جسدها ينطق بالإغواء حتى أنه تملص من بين يديها وكأنها سحرته ليذهب معها، تاركاً يديها يحتضنهما الفراغ، تحاول أن تناديه أو تلمس بذلته إلا أنه يبعد يدها عنه ويلحق بتلك السيدة، تدور حول نفسها وتنساب من عينيها الدموع.. تنهض من نومها تلامس خديها لتجد قطرات من الدموع ما زالت راقدة على وجهها وكأنها كانت بالفعل في الحفل وقد خذلها مهتدى، تمسك برأسها الذي أثقله الصداع والصراع في الحلم والبكاء ..

كنت أنطق بداخلي باسم ڤاريم معتقدة أن من ترتدي القناع هي، ولكن صورتها كانت لامرأة أخرى، لماذا أغار من ڤاريم على مهتدى؟ لا يحق لي ذلك.

إنه يقتحمني، يتنصل مني قلبي ويهرول إليه، أقتبس من الغابرين أقوالهم المأثورة عمن انساق لوسوسات قلبه فعاد مجرجِراً أذيال الخيبة، مخلفاً وراءه أجمل أجزائه وباكورة حلمه فيشيخ بلا تجاعيد، يخلع أرديته الملونة ليضع على جسده وروحه ستائر تحجب الشمس والنور، فأجدني كمن وقعت تحت تعاويذه، سحره، مسلوبة الحرية مقتادة حيث تقطن أنفاسه، يجب أن أفيق، أنفض عن قلبي ذلك الشعور، فلا عقلي ولا مكانتي يسمحان لي بالعبث أو المغامرة، فكل من يعتلي منصة الوعظ أو الإعلام يجب أن يراعي تصرفاته وأن يتنزه عن الصغائر وما يسئ إلى سمعته حتى يصدقه العامة.

***

٤٠

"ماذا يحدث لي كلما التقيته ؟! في عينيه مصنع الأحلام، مرتع لأنوثتي، أنسى أنني هبة التي تحاضر في الأدب، ولا أذكر إلا كوني أنثى تريد أن تراقص حبيبها، تستمع معه إلى أغنية عاطفية ترفعهما معاً إلى النجمات، لكنه لا يشعر بي، إنه غارق في عمله وترويض أبطال عمله، أشعر أنه لا يعرف الحب، لا يرى إلا نفسه كمخرج الروائع، غارق في نرجسيته.

لست أنا، لقد نبش بداخلي عن أسوأ غريزة جُبل عليها الإنسان، إنها الغيرة، لم أتصور أني مُحملة بها، أغار عليه منها ومن نفسي".

ركنت سيارتها وصعدت إلى شقتها وهي تتحرك بشكل آلي بلا وعي لحركاتها، فلقد أخذها من نفسها وهي رافضة لهذا الإحساس، رافضة لضعفها، لم تحترم إحساس الغيرة الذي تملكها منذ تقابلت مع ڤاريم.

لماذا لم يكن نفس الشعور تجاه دليلة؟ دليلة سيدة محدودة الثقافة، أو هكذا تبدو لي، بسيطة المستوى، تلقائية، واضحة، أما ڤاريم فهي تقترب مني، تكاد تكون أنا بهيئة أكثر جرأة وحرية ..

تُقبل خد أبيها وتدخل إلى غرفتها لتبدل ملابسها وتخرج لتتناول معه وجبة العشاء التي جهزها بنفسه، وأثناء الطعام يتحدث معها فيما اتخذته من قرارات فيما يخص ميراثها...

- بابا، لا ميراث ما دمت حياً وأنا لا أطماع لي، ماذا يهم إن رحت مني قل لي؟! لا تتحدث عن موتك والميراث، أتمنى أن يكون موتي قبلك.

- أبعد الله عنك حبيبتي، أنا أقوم بما يجب أن يتم، فنحن غير مخلدين ولابد أن أحميك، فهناك من يتربص بك وبموتي.

- بابا، أطال الله لي في عمرك، نصيبي الشرعي يكفيني ودع القانون يوزع الحقوق.

- أنت لا تفهمين.

- بابا لتفعل ما تراه الأصلح، ولا تشغلني بهذه الأمور، أريد أن أحكي لك عن يومي..

وجلست لتقص له ما دار بيومها ..

- هيباتيا" نص مقلق يا هبة، وإن انتبهت له الرقابة سيسبب لك الكثير من المشاكل، أنت تخوضين في مناطق حولها خطوط حمراء بل دوائر لا يجرؤ أحد أن يتجاوزها..

- معي مخرج مختلف، قوي، شجاع، مثقف، راقٍ
- أرى حديثك عنه تتخلله نبرات في صوتك تغرد..
يقترب منها، يحتضنها، ويقبل رأسها، ودمعة تهرب من عينيه بلا سيطرة منه ليسرع بمسحها..
- أخاف عليك ابنتي فأنت ملاك نزل تلك العائلة بل تلك الأرض خطأً.
- بابا، كن حسَن الظن بالناس، أنا لا أعتقد أنهم بمثل هذا الشر، إنهم على أية حال عائلتي وأنا لم أمسهم ولن أمسهم بسوء.
- وماذا عن مهتدى هذا؟
(اعتاد أن يقرأ ملامحها وكلماتها بل وصمتها، فهي كانت كعبته التي يتجه إليها متأملاً أركانها في خشوع)
- أشعر أن وراءه حكاية يا وحيدتي.
- ممكن أنام؟
- تفضلي وغداً لي معك حوارات.
نهضت ورفعت الأطباق إلى المطبخ ثم دخلت حجرتها لتنام، إلا أن النوم كان قد غادر عند سؤال أبيها لها عن مهتدى لتذهب في حلم، رغم أن مهتدى كان بطله إلا أنه صاحبه غيرتها التي توحشت في تلك الرحلة في الحلم.

٤١

تفاجأ هبة بتليفون من ڤاريم تهنئها على نص "هيباتيا تعود"، فلقد أمسكت النص ولم تتركه حتى انتهت من قراءته، فلم تستطع النوم إلا بعد أن تعلن لها عن إعجابها بالنص وبما يحتويه من رسائل بين السطور، ثم تطلب منها أن تزورها بالشاليه ليقضيا معاً وقتاً لمناقشة النص، تقبل هبة دعوة ڤاريم وتعدها بزيارتها يوم الخميس، فجدولها ينتهي ظهراً،

تعقب ڤاريم قائلة إنها ستدعو مهتدى أيضاً، ترحب هبة بالفكرة وتهنئها عليها وتتمنى لها ليلة سعيدة، وتغلق الموبايل

***

يبدو أن للحب وجهاً آخر وهو الغيرة، منذ أول حوار بيني وبين مهتدى على الفيس، وقد تسلل إلى قلبي واستوطن غرفه الثلاث، ففي الرابعة أبي، تحدثنا طويلاً وتقاربنا لكنه أبداً لم يتجاوزحدود الأدب واحترم مكانتي وعقليتي، وكانت نقاشاتنا تدور حول الأدب والفن والسياسة، لاحظت أنه مهموم بمصر، عاشق لها ولترابها رغم أنه عاش فترة من حياته بفرنسا لدراسة الإخراج المسرحي وفن التمثيل، لا يعرف قيمة الوطن إلا من بعد عنه واغترب، لقد شعرت بنفس إحساسه ونفس غرامه بمصر فترة ابتعادي عنها وعن أبي، وربط بيننا كوننا من البلد نفسه، "الإسكندرية"، بلد يخلق بداخلك الجمال ويخلق منك متذوقا وشاعرا، كم تعجلت نزولي مصر لأقابله وألتقي به، لكن لا أدري لِم لَم أجد من ناحيته نفس المشاعر ونفس اللهفة، نسيت أنه مخرج مشهور ولا شك أن حوله الكثير من المعجبات، إلى أن التقيت به، لم يختلف كثيراً عن الصورة التي رسمتها له، لصوته تأثير السحر على أذني ..

لم يكن من المناسب الانجراف وراء مشاعري، فلقد تملكت مني وبصحبتها الغيرة، حيث صارت مؤرِّقاً لي ومنغصاً لسعادتي!!

كيف تكون هبة، أستاذة الأدب المقارن، ابنة الدكتور ثروت، ضعيفة إلى هذا الحد؟!! وكيف سمحت لنفسي السقوط في ضعفي؟!

ڤاريم فتاة مثيرة وراقية وتحمل بداخلها الكثير من الآلام، ولم أشهد منها أي تجاوز أو نظرة تنم عن علاقة بينها وبين مهتدى، لكنها منافس قوي وشرس، جذابة، رشيقة، مثقفة، وتلقائية، وفي الوقت نفسه فنانة ولها شكل خاص بها يميزها عن كل من يحطن بمهتدى، حرة تتحرك بكامل رغبتها وإرادتها، متمردة لا تؤمن بالقيود أو الموروثات، ولكنها ما زالت لديها بنايتها التي أقامت أساساتها من قيم تخصها، وفلسفة صاغتها من بيئتها المختلطة من غرب وشرق، من إسلام ومسيحية، كل ذلك صاغ منها قلباً فسيحاً يسَع المختلفين والمتناحرين، وجعل منها "أيدول" يستهوي الرجال.. أشعر كلما رأيتها في صحبة مهتدى بالغيرة ويختلق خيالي الكثير من الصور الحميمية بينهما، وتأبى غيرتي إلا أن تصورها في مشهد المُغوية هي وكل من اقتربت من مهتدى، ولكن ڤاريم الأكثر حظاً من غيرتي..

كثيراً ما صور لي خيالي أنها ترتمي في أحضانه وتقبله في شفتيه، وتتأوه عشقاً ورغبة، كثيراً ما رأيت على وجهها ابتسامة ترحيب بي إلا أن حبي لمهتدى جعلني

أرى تلك الابتسامة كما وأنها ابتسامة من أمسك بي في لحظة ضعف وأنها انتصرت علي، لم تلك الابتسامة التي تتلبس شفتيها كلما أمسكت بي متلبسة في فعل فاضح لم أرتكبه؟! لماذا وقفت تراقبني وتتبع نظرات عيني؟ هل علمت أني رأيتها كعاهرة خلعت عنها الحياء قبل أرديتها؟ بل كانت في أحد أحلامي أو كوابيسي التي كانت كما الجاثوم، كمصارع في حلبة صراع الثيران، قد غرست أظافرها وساقيها بل وشفتيها في شفتيه فسقط صريع وحشيتها،

لقد تذوقت معها طعم الشهوة، بل وتخللت صدري قبل أنفي رائحة ذكورته التي يفرزها ذكر الحيوان ليجذب بها أنثاه ..

كنت أصارعه معها وأنا ثابتة في مكاني وقد كبلت قدمي وساقي ويدي بقيود حريرية ولكنها حادة، مؤلمة، أربكت عقلي، أصابت حياتي بالفوضى بشعرها الهمجي وعينيها اللتين تتراقصان للحياة فتغويها بأنوثتها التي أصابت يقيني في القلب.

نعم كانت مختلفة، لا شك مختلفة كما حَمل شرد عن قطيعه المنقاد في رحلة لا يعلمها، وإلى وجهة لا يعرف مغزاها، إلى أن ظهرت لتمنحني معنى آخر للتفرد،

كانت متفردة كما نبية تحمل رسالة تلقي بها على أذني بمواقيت تحددها هي وبكلمات تنتقيها هي، وأنا أتملص قابضة على ما تبقى من أوثان قبيلتي، حوطتني بأسئلتها بل حبستني في دائرة تنتهي حيث المبتدأ، مبعثرة أنا منذ التقيت بها، إنها تعزف سيمفونية تبعث بداخلي غجرية تمزق كل الحجب لتلامس بجسدها الرياح، تراقصها، تدب بقدمها ذات الخلخال ذي الأجراس الأرض لتهتز تحتها وتنبجس أنهاراً من الحياة، لقد أخذت بناصيتي ، كشفت سوأتي ..

تُرى كيف ترى مهتدى؟ هل أحبته؟ هل وقع في غرامها؟ هل يلتقيان، يتلامسان؟

لكنها قالت لي ذات مرة وهي جالسة فوق مقعدها الخشبي بالمسرح قبل حضور مهتدى: أراه كما بطل لسينما السبعينيات ولم يغادرها، لا طعم له.

(وأطلقت ضحكتها التي كانت بلون شعرها، نارية، لتربك رزانتي).

اعتدلت ڤاريم في مقعدها الخشبي لتواجه الفضاء في محاولة للهروب من مواجهتي، حاولت أن ترد على الأسئلة لكن الإجابات دارت في أعماقها ولم تخرج بعد إلى كلمات على لسانها، واكتفت بالنظر إلى عيني، ربما

لأنها أدركت لهفتي على سماع رأيها في مهتدى ومدى تعلقها به، فأنا لا علم لي بعالم التمثيل والقدرة على التحكم في مشاعري والادعاء، فلاشك أن كل ما بداخلي طفا كملامح على وجهي وتصرفاتي..

كنا في فترة الراحة نحتسي القهوة بعيداً في الصف الأخير من المسرح، قالت:

- مهتدى مخرج قل مثله في عالم الفن، يعشق عمله، أعتقد أن المسرح هو عشقه الأوحد..

لاأدري هل كانت تلمح لي بشئ عن قصد، أرادت أن تبعد تفكيري عن التعلق به، أم كانت جُملاً غير مخطط لها، عفوية، خرجت في ثرثرة نسائية ليست لها أية دلالة؟

***

٤٢

ركب حسام مع دليلة التي كانت شاردة أغلب الوقت وحزينة، ليقتحم حسام صمتها ..

- سيارتك جميلة .

- نعم إنها هدية من أحد الأمراء الذي كان واقعاً في غرامي .

(كانت تقولها وهي تحرك رأسها ويديها اليسرى في كِبر مصطنع، محاولة منها لشطب صورتها المحرجة في بروفة المسرح).

سألته: هل أنت من رشح اسمي لمهتدى؟

تنحنح خجلاً ثم أردف قائلا : وهل تحتاجين لأحد يتوسط لك؟! أنت فنانة وجميلة.

- من هم مثل مهتدى يتعاملون معي وكأنني هواء، لا يرون موهبتي، فلقد حكموا علي كما أغلب العامة بأنني أرتزق من جسدي وأهين الفن وأسئ إليه.

- كنت أريد أن أتحدث معك على انفراد في الطريقة التي نتبعها لكي تفوزي بالدور فالعمل مع مهتدى سيكون صفحة هامة في الـ "سي ڤي"، سيرتك الذاتية.

أغراها بتلك الجملة، فعرضت عليه أن يصحبها إلى بيتها ليتحدثا في هذا الأمر..

بدت على ملامحه علامات الانتصار فأخيراً سيذهب معها وينفرد بها في بيتها.

دخلت الشقة، أنارت النور بالريموت، لحق بها، أشارت إليه بالجلوس في الأنتريه، استأذنته في الدخول لغرفتها لدقائق وعادت وقد بدلت ملابسها بفستان أزرق قصير، بسيط، وفوقه وشاح من الحرير الأصفر، دعته إلى كوب من العصير ..

- اعتقدت أنك ستدعونني إلى كأس من الخمر

- انا لا أقتني الخمور في بيتي، أجبر على تناولها في العزومات لمجاراة الأجواء فقط.

لاحظ حسام وجود مكتبة صغيرة أنيقة من أربعة أرفف على شكل جيتار بالصالة، قام لمشاهدتها ولاحظ أن أغلب الكتب عن الفقه ل "سيد سابق"، ومجموعة الخواطر الخاصة بالشيخ الشعراوي، ومجلدات عن أسماء بعضها سمع به و الآخرين لم يسمع بهم من قبل ..

- اعتقدت أنك لا تقرئين ..

(يعدل من سؤاله الذي أدرك أنه مهين لها) ..

- أقصد أنني لم أتخيل أنك تهتمين بالكتب الدينية.

- بلى.. الفضل لزوجي السابق لقد اهتم بتعليمي وتثقيفي وإطلاعي على الكثير من المعلومات التي

كنت أجهلها، بل ودربني على الرقص والإتيكيت، لكن للأسف كنت حمقاء حين تركته يمشي .

- لماذا انفصلتما؟

- كان يريد أن يجعل مني زوجة ويمد بجذوري في الأرض بدلاً من تحليقي بلا أرجل ثابتة على الأرض، والآن صدقت نبوءته وهأنذا أعاني الفراغ والوحدة، تتسرب السنون، والخطوط تسكن وجهي، وجمالي تنتهي فترة صلاحيته، وأبقى أنا مع المرآة التي تعافني.

- أنت ما زلت بأناقتك وجمالك..

- أنا أحق بدور هيباتيا حسام، فمن ڤاريم هذه؟! هي مبتدئة بلا تاريخ، لا تعرف كيف تقف على المسرح، هل سيغامر مهتدى باسمه مع مبتدئة؟!

- فعلاً أنت أحق بالدور، فلك جمهورك ومعجبوك الذين سيستفيد منهم مهتدى والمسرح، اتركي لي هذا الأمر.

نظرت إليه ممتنه لإيمانه بها، رغم أنها كانت تعي أن اهتمامه كان بجسدها وليس بموهبتها، ولكنها اعتادت ذلك وتعرف كيف تستفيد من رغباتهم دون أن تمنحهم ما يشتهون منها..

استأذنته في الاسترخاء فهي متعبة، لينصرف وقد غطاه الإحراج، ورافقته خيبة الأمل.

٤٣

هيباتيا: ماذا يحدث بالإسكندرية أبتي؟! لماذا يخلعون كل الطرقات ويسوقوننا كما الأغنام في طريق واحد؟! لماذا لا يتركون لنا الحرية في الوصول إلى الإله، كلٌّ حر في أن يسلك الوجهة التي يرتاح إليها ويجدها أسرع وأصدق؟!

ليتركوا الصيادين يسلكون البحر ويتصفحون موجوداته، ليتركوا المزارعين في أراضيهم الخضراء، وليخلوا الأعراب في صحاريهم يمتطون الجمال في طريقهم ويتأملون السماء ونجومها، سيصلون يا أبي، سيصلون إلى الرب .

وليخلوا أياديهم عني، فأنا أقترب منه، يحدثني، يربت على صدري فأشم وجوده، أستشعره بكل خلجة من خلجاتي، أراه في الأعداد، ألا يعرفون مدلول رقم "١" المقدس؟ ألا يدركون أنه رقم الوحدة وعدم الانقسام؟ إنه لا يعتمد على الآخر فهو المصدر للآخرين، الكل في احتياج إليه، لا يوجد ثان يتفق معه، فلا تعدد يليق به، إنه رقم خالص، إنه الرقم الذي يشير إلى الرب.

كيف يلقونني بالهرطقة وأنا الموحِّدة؟! كيف يجعلون من التفكير تهمة ؟! إنها الهبة التي منحتها لنا السماء لنرتقي عن باقي الحيوانات، بل يتمايز البشر بدرجة

التفكير عند كل فرد، هل صار التفكير تهمة، جريمة؟ وهل سنصل إلى الرب بالجسد؟
إنهم يصيغون من أجمل ما أبدعته يد الرب تهماً يلصقونها بكل عالم، فهأنذا يطاردونني لأني أمارس التفكير وأخلق الجمال..

- اهدئي ابنتي.. إنها حقبة ساقطة من تاريخ بلادنا وستمر مثلها مثل الكثير من فترات الظلم والتي لم تدم، المعرفة والعلم في صراع أزلي مع الجهل والهمجية ونحن سنتخطاها بلا شك..

***

٤٤

نهضت ڤاريم على رنات تليفونها المحمول المتواصلة، إنه طاهر...

- آلو

- أين أنت ڤاريم؟

- ما الأمر طاهر؟

- هل أزعجك اتصالي؟

- أكيد، الوقت باكر جداً لا يجوز أن تتصل في أوقات مثل هذه، لقد سببت لي قلقاً وخوفاً، اعتقدت أن هناك كارثة.

- أعتذر، فقط أردت أن أسمع صوتك وأطمئن عليك .

- شكراً، هل هناك شئ آخر؟

- لا . تفضلي، أكملي نومك .

- أعتذر لعصبيتي طاهر.

- هل سأراك اليوم؟

- لا أعتقد، عندي مواعيد ومشاغل كثيرة ربما يوم آخر.

"انهت ڤاريم المكالمة وواصلت نومها ..لا تدري سبباً لعصبيتها عليه، هل لأنها شعرت بخطورة اقترابها

منه؟! أم هاجس هاجمها أنه يقترب منها لمنفعة ما أو محاولة منه اقتحام عزلتها؟
وضعت الوسادة فوق رأسها واحتضنتها بذراعها وعادت للنوم.

٤٥

أغلق طاهر المحمول وقد شعر بإحباط من مكالمتها له، فلقد اعتقد أنه قد تمكن من قلبها وأنها قد صارت أسيرة له.

هناك هاجسٌ ما في صدر طاهر جعله ينتظر في مقهى مقارب من الشاليه الخاص بعائلة ڤاريم، فلقد تبعها بسيارة أجرة يوماً حتى يعرف مكان إقامتها، ولكنها لم تتوقع منه ذلك.

بعد الظهر نزلت ڤاريم وقد ارتدت فستاناً من الكتان الأبيض يصل إلى أسفل الركبة حتى الكعب، وعلى رأسها (تربون) جملي، وفي رقبتها تلك القلادة ومعها كوليه من الفضة، ركبت سيارتها وانصرفت ليلحق بها في تاكسي، نزلت ڤاريم عند باب المسرح ودخلت وقد علت وجهها بسمة فرحة، وقف طاهر وصرف السائق وانتظر يبحث عن مكان مناسب للانتظار حتى تخرج ڤاريم..

***

٤٦

جلس ثروت يتحدث مع وجيه، الذي امتدت فترة صداقته به منذ الطفولة حتى شابا معاً ومرت بهما أحداث تتصاعد وتهبط كما مؤشر البورصة، إلا أنهما عبرا تلك الأحداث والأزمات لتتوطد صداقتهما وترسخ كما النخيل..

- الساعات المتبقية لي في هذه الدنيا تتناقص وأنا أخشى على ابنتي من تلك العائلة التي تترصد بها، ما حماها من مخالبهم هو وجودي، فما أسكتهم هو قلقهم أن أبيع لها كل شئ، فهم يتملقونني ويحاولون استمالتي حتى لا تضيع من بين أيديهم ثروتي .

- مما تخاف طالما أمّنت مستقبلها؟ الفلوس ليست هي السعادة يا ثروت كما قالت لك هبة، أنت ربيتها فأحسنت تربيتها، وحتى إن وضعوا أيديهم على ثروتك فهي ليست معاقة ولا ضعيفة إنها فتاة يتمنى أي أب أن يهبه الله مثلها، أستاذة بالجامعة ولها كتبها ومؤلفاتها، أنت وهبتها أجمل وأقيم ثروة، العقل ، الثقافة والأخلاق.

- ولن أستريح حتى أمنحها مالي وليتني أستطيع أن أمنحها جسدي ودمي، هبة كانت المنحة والعطية التي مهما كنت أحلم ما كنت سأحلم بابنة مثلها.

- ولكنك ستعرضها لحقد أهلك، والضغينة والحقد يولدان أفعالاً تحول الملاك إلى شيطان لا يعي معنى

الفضيلة، أشير عليك بأن تترك جزءاً مما تمتلك لهم وأنت حي حتى تأمن شرهم وحتى تحمي ابنتك.
- هناك سر يؤلمني وأحتاج من يحمله عني وأنت الصديق والأخ الذي خرجت به منذ الصبا ولن يكون هناك من آمنه على سري سواك.
- ما الأمر؟!
- وجيه! هبة ليست ابنتي، هي ابنتي بالتبني، وقد أوصتني زوجتي بحفظ ذلك السر ولقد نجح ابن أخي - بحكم عمله في جهاز له أذرعه في هذا البلد - من اكتشاف أني لم أنجب، لقد فتشوا من ورائي عن أية ثغرة ينفذون منها إلى هبة أو إليّ، وهم يهددونني بهذا السر ويحاولون مساومتي على أن أكتب لهم كل شئ وإلا سيقومون بفضحها، وأنا أخشى عليها، أنت تعلم مدى رقتها ونقائها.
- إنها بالفعل كارثة!! لذا أنصحك أن تمنحهم ما يشبع طمعهم ليبعدوا عنك وعنها، لكن فكرة أن تقوم بإجراء ما قد يعرفه ابن اخيك فهذا كفيل باستفزازهم والإصرار على إلحاق الأذى بها، هبة ليست بحاجة إلى كل هذه الأموال فقط جنبها شرورهم ونفوسهم الخبيثة
- وجيه، أريدك أن تعدني بأنك لن تتخلى عن هبة إن مت
- أطال الله في عمرك، أعدك يا صديقي

***

٤٧

- أين أنت يا طاهر؟
- بالإسكندرية كما اتفقنا.
- ولماذا لا تتصل بي وتطمئنني عما فعلت؟
- تعرضت لحادثة وساقي في الجبس
- معنى ذلك أنك تخليت عن اتفاقنا؟!
- بالطبع لا، لكن امنحني فرصة وسوف أعلمك بكل شئ في حينه، لكن لا أريد إلحاحاً ..
- هل التقيت بها؟
- نعم
- وماذا فعلت معها حتى الآن؟
- سبق وقلت لك إني تعرضت لحادث عطل خطتي قليلاً، لكن اطمئن سوف أبدأ في تنفيذ خطتي اليوم.
- أنتظر أخباراً منك.
- سيحدث قريباً.

أغلق طاهر الموبايل وحذف رقم المتصل وقام بالاتصال بڤاريم، لكنها اعتذرت عن لقائه بحجة أنها مشغولة وتعمل على التحضير لرسالة الماجستير.

لا يدري طاهر السبب وراء غضبه، هل هو غيرته عليها وإحساسه بأنها تتسرب من بين يديه، أم غضبه

لأن المهمة التي كلف بها ظهرت أمامها معوقات حالت دون تنفيذها؟
كان من المفترض أن يلتقط لها صوراً معه في حالة حب ويرسل تلك الصور إلى فايز، وفي المقابل سوف يتلقى مبلغاً لابأس به.
فايز يعرف عنه جاذبيته للنساء ومغامراته معهن، سواء كن مصريات أم غربيات أو من الشرق الأقصى، طاهر لم يكن رجلاً مؤذياً، إنه يبحث عن المتعة التي حرمته منها زوجته، وكلما تعثر في فتاة أو امرأة رسم الكثير من الأحلام عن الحب حتى يكتشف أنها مجرد رغبة تنتهي بمجرد الإشباع..
ڤاريم فتاة مختلفة، راقية، جميلة، مثقفة، تحمل من الصفات الكثير مما يجذب إليها أي شاب، ولكنه اعتقد لأيام أنها تعلقت به ليكتشف أن توقعاته كانت خائبة وأنها كانت ترأف به، وما ربطها به هو شعورها بالامتنان إليه لأنه لم يستغل الحادثة لابتزازها، ثم ذهبت إلى حال سبيلها وتركته، هو الذي انجرف في أحلامه وخلق منها قصة، رفضت ڤاريم أن تشاركه فيها البطولة، والآن غضبه ذكره بمهمته التي يسعى إلى إنجازها انتقاماً منها ومن كل النساء فيها، وخاصة زوجته.

٤٨

طرقات على باب مكتب نصري، يدخل السكرتير ليخبره بتواجد أحد افراد عائلة ثروت السويفي،

- دعه يتفضل .

يخرج السكرتير ويدعو الضيف للدخول .

- مساء الخير سيادة المستشار .

- مساء الخير، تفضل، (يشير إلى الكرسي المواجه لمكتبه ليجلس الضيف)

- حضرتك ماذا تحب أن تشرب؟

- شكراً لك، لا داع.

- أبداً لابد أن تشرب شيئاً.

- إذن، ليكن نسكافيه بلاك.

- عم سامح أحضر النسكافيه للباشا، معك . كلي آذان مصغية.

- نصري باشا، أنت أكثر الناس حرصاً على رد الحقوق لأهلها، نحن نصدق في ذلك، لذا لم أشك لحظة إن عرفت الحقيقة أنك لن تتوان في إعادة الحق لأهله .

- وما نوع الحق الذي هو لكم وتريدونني أن أعيده إليكم؟!

(يفتح حقيبة ويخرج منها أوراقاً ويقدمها لنصري)

- هذه صور لشهادات صحية وتقارير طبية تخص زوجة د. ثروت السويفي، عمي.

يطلع نصري على الأوراق وترتسم على وجه علامات الصدمة والحزن، لكنه لا يلبث أن يتماسك ويهدئ من فوران الأدرينالين في جسده، يمسك بكوب الماء، يرتشف منه القليل ويستجمع قوته، ويسأل:

- كيف وصلت إليكم تلك الأوراق التي أشك أنها مزورة مائة بالمائة؟

- أولاً :هذه الأوراق صحيحة ولا مانع من أن تتاكد سيادتك منها ومن مصادرها، فهي من معامل لها اسمها، وأما كيف وصلت إلينا فما زال بالدنيا ناس تسعى لمساندة الحق.

- وهل الحق أنكم تسعون لورث رجل ما زال على قيد الحياة؟!

- نحن لا نريد أن نرثه وهو على قيد الحياة، نحن نريد أن نمنعه من أن يهدر مال العائلة وثروتها على فتاة من الشارع فقط.

- لا أسمح لك بإهانة د.هبة ولا أبيها.

- أمازلت تدعي أنه أبوها بعدما قدمت لك كل هذه الأوراق؟!

- هي ابنته ولن أسمح لكم بهدم اسم سيدة لها احترامها ومكانتها بين الجميع.

- أنا لن أناقشك في مكانة ولا وضع يخص هبة، ولكن أنا هنا لأعرض عليك التالي: نحن سوف نرفع قضية وكلنا ثقة في أن القضاء سينصفنا، ولكن جئت هنا في محاولة أخيرة لكي أجنب عمي أي إحراج أمام الإعلام وأمام هبه لنصل إلى حل سلمي بلا أي إهانات، نحن لن نحاسبه عما أهدره من مال على تربيتها وتعليمها وما منحه لها من أموال حتى الآن، لكننا لن نسمح له بأن يهدر ما تبقى، والذي هو من حقنا، فلقد هددنا أنه سيقوم ببيع كل ما يملك لها، وأقسم لك أننا لن نسمح لها بأن تهنأ بمالنا حتى لو كلفنا الأمر فضحها وفضحه بل ومحوها من على وجه الأرض.

- هل تهدد عميلاً لي، كان وما زال في معزة أبي، بمكتبي؟!

- أنا هنا لكي أتفاهم معك كوكيل عنهم لا أهدد، امنعه أنت من أن يرتكب جريمة في حق الشرع وحق أسرته

وحقنا، ليراع الله فهو في طريقه ليكون بين يديه، وما يفعله يغضب الله.

- لن أناقشك في إيمانك الذي طفح فجأة ولكن أعدك بأنني سأقوم بعمل ما هو في صالح عميل مهم في مكتبي

- سأنتظر منك رداً مناسباً ولك منا نسبة أكبر من النسبة التي تقبضها منهم.

(أوشك نصري أن يسب شاكر ويطرده لولا أنه كظم غيظه حتى يكسب ثقته هو ومن وراءه حتى يحمي هبه وأباها منهم)

حيا شاكر نصري وانصرف بعد أن ترك له الكارت الخاص به.

****

٤٩

تأنق مهتدى ونظر إلى صورته في المرآة ولم تغادر شفتيه تلك الابتسامة التي كانت تزوره كلما قبلته أمه على خده ..

أغلق الباب خلفه وهو يصفر بلحن أغنية عبد الحليم، (بكرة وبعده، اللي وعدني هيوفي بوعده)، يشتري باقة زهور وينطلق بسيارته الفولكس فاجن الحمراء إلى دليلة، تفتح دليلة الباب بعد أن منعت الخادمة عنه، فقد قد خططت أن تستضيفه بطريقة أكثر حميمية.

قدم لها مهتدى باقة الزهور واتجه إلى الأنترية المواجه للباب مستنشقاً الهواء في إعجاب..

- الله، رائحة المسقعة غلبت رائحة عطرك شوقية .

- أها، هكذا إذن؟! تقصد أن رائحتها أحلى من رائحةعطري؟ (وضحكت في سعادة).

- أقول الصدق، حين تشمشم المعدة عن حبيبها يسكت أي صوت آخر، فلا صوت يعلو فوق صوت المعدة. (وأطلق ضحكة كانت تتأرجح على حنجرته كما طفل سعيد في ليلة عيد)

- تفضل مهتدى أنا والله طبختها لك بنفسي، وجعلت من أم نادر السيدة وأنا الطباخة اليوم لأجلك أنت.

لكن، لم ناديتني بشوقية؟! أنا أفضل دليلة .

- وأنا تروق لي شوقية التي طبخت بنفسها طبق المسقعة

بعد أن التهم طبق المسقعة، التي كان يتغزل في كل لقمة منها كما يتغزل شاعر في حبيبته، دعته للجلوس بالشرفة لاحتساء الشاي بالنعناع، ظهرت على وجهه علامات الدهشة، كيف تجبره على مجالستها وهو الذي لا يجلس أبداً في مكان أكثر من نصف ساعة، لقد تمكنت منه حتى أنه استرخى على الكرسي ممسكاً بكوب الشاي، فأحضرت له كرسياً آخر ليمدد ساقيه فوقه وغطته بشالها وجلست بجواره صامتة..

أغمض عينيه، فكاد كوب الشاي يقع من بين يديه، أمسكته ووضعته فوق الطاولة الصغيرة أمامه وجلست تتأمل في ملامحه وهي مبتسمة، أطفأت النور وأدارت الراديو بعد أن وضعت الـ "يو إس بي"، فيرتفع صوت أم كلثوم يأغنية "أمل حياتي "، نظر إليها وفي عينيه لمعت نظرة وكأنها نجمة سقطت، تحمل رسالة في عينيه، بادلته بنظرة تكاد تخلو من أي رغبة إلا من الرحمة والعطف..

أفاق بعد قليل ليسحب يديها ويراقصها على أنغام الأغنية..

تدق ساعة الحائط، إنها التاسعة مساء، ليفيق على صوتها، يُقبل يدها ويستأذنها في الانصراف..

يرن الموبايل، تخبره أنه حسام، فيهز رأسه متعجباً..

- ماذا يريد منك حسام؟

- لاشئ، فقط عرض علي تدريبي على المسرح.

- حسام سيدربك على المسرح؟! عجباً، أتمنى أن تنتبهي لنفسك شوقية، أشكرك على المسقعة والساعات اللطيفة في صحبتك، تصبحين على خير.

قبَّل يدها وانصرف.

***

٥٠

كانت في طريقها إلى المكتبة، فهي تنتهز فرصة وجودها بالإسكندرية لمطالعة المراجع التي تحتاجها في دراستها، لتلتقي بطاهر هناك جالساً في الجناح الذي اعتادت الجلوس به، تنظر إليه وقد علق بوجهها علامات الغضب، تجاهلت وجوده ونظراته وأكملت رحلة بحثها عن تلك المراجع، لتصل إلى مبتغاها وتمسك بالكتاب وتجلس وقد غرقت بكامل وعيها في القراءة وتسجيل ما تراه من نقاط مهمة في دفتر خاص بها، وهو جالس يدعي أنه يقرأ ومنشغل بها وبتحركاتها، يشعر بالملل والضيق، يتجه إليها ويحدثها في أذنها حتى لا يسبب أي إزعاج للحضور.. تنهره قائلة:

- لماذا تفعل ذلك؟ هل تريد أن تقنعني أنك تدور حولي لأجل الصداقة؟ انصرف طاهر أنا مشغولة جداً هذه الأيام وحينما أنتهي مما أنا فيه سأتصل بك إن كنت في حاجة إليك؟

- آسف أني اعتقدت أننا أصحاب؟

- طبعا أصحاب لكن هناك أصول ومبادئ للصداقة الناجحة وأنت لا تتبعها، ممكن تنتظرني بالكافيه من فضلك؟

- سأنتظرك، لكن رجاء لا تتأخري .

- لن أفعل .

(بعد قليل التقت به في الكافيه وجلست معه)..

- كيف أنت؟ أفتقدك.

- أنا بخير أشكرك.

- هل تعملين بالمسرح؟

- كيف علمت أني أذهب إلى المسرح؟ هل تراقبني؟

- بالطبع لا أنا رأيتك مصادفة.

- نعم أعمل هناك .

- ماذا تعملين؟

- أفتش عن شئ ما يساعدني في دراستي، فالفلسفة يندرج تحتها الفن.

- ألن نلتقي ثانية؟

- ما رايك أن تعرفني على زوجتك وأبنائك؟

- لماذا؟

- هذه أحد شروط الصداقة، أن يعرف كل طرف محيط الآخر.

- وهل ستعرفينني على أسرتك؟

- بالطبع، لكن ألتقي بأسرتك أولاً.

- لك ذلك سأنسق مع زوجتي وأتصل بك.

- تمام، عندما تستعد كلمني على الموبايل، الآن لابد أن أكمل بحثي، أستأذنك..

- تفضلي.

يقف طاهر صامتاً وقد غاب في تفكير عميق فلقد فاجأته بهذا الطلب الذي صدمه وأربكه، فليس من مخططه أن تعرف ڤاريم عنه أي معلومات، وهي الآن تجذب أول الخيط في كشف هويته وبيته.

عادت ڤاريم إلى مقعدها بالمكتبة وقد انتابها شعور بالضيق من طريقة تعاملها مع طاهر التي اصطبغت بالحِدة.

- "أعتقد هكذا أفضل حتى لا يتوهم شعوراً لا يوجد، وحتى لا أُقحم نفسي في موقف مهين ثانية.

(هكذا حدثت نفسها).

***

٥١

إنه الخميس، أعدت ڤاريم وجبة سمك، تبلتها ووضعتها بالمطبخ في انتظار هبة ومهتدى ..

قدم مهتدى أولاً حاملاً باقة زهور راقت لڤاريم، ودعته للجلوس بالشرفة الخارجية إلى أن تأتي هبة.

الشالية كان بسيطاً، يتكون من حجرتين بينهما صالة مفتوحة لها باب ألوميتال يفتح على (فارندا) مواجهة للبحر، وباب خلفي على يمينه مطبخ إيطالي مكشوف للصالة والبحر ..

- ماذا تشرب مهتدى؟

- لو أمكن فنجان قهوة؟

صنعت له القهوة وقدمتها له، حيث كان شارداً مع موجات البحر التي كانت كنغمات أو أصوات لأنثى تنادي حبيبها وتستعجله اللقاء،

(شردت بعيداً): مستر مهتدى .

- معذرة فأنا عاشق لصوت البحر وموجاته .

- معك حق فانا أفر إليه كلما كبلتني الآلام .

- وهل هناك ما يؤلمك ڤاريم وأنت ابنة أحد وجهاء المجتمع ومالكيه.

سكتت ڤاريم فلقد فاجأها بتلك الجملة.

- هل ضايقك أنني عرفت أنك ابنة عزالدين؟

- لا . لكن كيف ومتى عرفت؟

- أنا كفرد في هذا المجتمع منشغل بالانتخابات الحالية لمجلس النواب وظهر اسم عز الدين من الشخصيات المرشحة، لفت نظري الاسم، بحثت في جوجل لأرى بعض الصور التي تخص الشركة وبعض المناسبات ومنها وفاة زوجته الإيطالية وظهرت صورتك معهم، إذن فأنت ابنة زوجته الإيطالية، هذا يفسر لي ما وراء تلك القلادة الخلابة التي تحتضن رقبتك دائماً، ألاحظ أنك تحاولين إخفاء اسم العائلة وطبعاً لن أكون متطفلاً لأسأل عن السبب!

- إنه ليس سراً ولا أمراً مشيناً مستر مهتدى.

- أولاً لا تستهويني كلمة "مستر"، أنا مهتدى احذفي الألقاب.

- كما تحب، أنا أقدم اسمي لأنه صنيعتي أنا، أما اسم عائلتي فهو منحة لم أجتهد للفوز به، وأحياناً يسلبني السلام ويسبب لي الكثير من المشاكل، أقصد إنه اسم يمنع عني الحياة بشكل طبيعي، يذلل لي العقبات فيجعل الحياة مسخاً بلا معنى.

- ترى ماذا سيكون موقف عزالدين بيه إن وصل إلى علمه أن ابنته تعمل بالمسرح؟
- لا تقلق، أبي رجل متحضر لا يتدخل في اختياراتي ويثق بي ثقة ليست عمياء، بل ثقة عاقلة، دعنا من ذلك فلقد دارت بداخلي أسئلة عن هيباتيا، ماذا لو خرجت هيباتيا من الحريق أو بعثت لتجد نفسها في عصرنا الحالي؟
- جميل فعلاً هذا التصور، أكيد لن يكون صراعها مع قطب ديني واحد، سيكون صراعاً بينها وبين القطبين هذا إن ظلت على وثنيتها اليونانية أو قد تختار أن تكون علمانية لا تعطي للدين اهتماماً، فما كان يشغلها دوماً العلم، مما سيولد أمامها صراعات مع القطبين.
شردت ڤاريم في حديث مهتدى الذي خلق بداخلها المزيد من التساؤلات والإعجاب بثقافته أيضاً، لتعود من شرودها موجهة له سؤالاً: ترى لو اختارت أحد الأديان أيهما كانت ستختار؟
"فهذا ما يشغلها، فلربما تجد ضالتها في هيباتيا ومنطقها. "
- أشك أن هيباتيا ما كانت لتختار أيا منهما، هيباتيا علمانية، لنقل إنها كانت إحدى رائدات العلمانية إن لم تكن أولهن، ربما كانت هيباتيا ستواجه صراعاً بينها

وبين الظلم الذي يتعرض له مجتمعنا، ربما كانت دعوتها ورسالتها عن العدالة الاجتماعية وحقوق الفقراء.

- لكن هيباتيا لم تكن اهتماماتها سياسية بل فكرية.

- وهل هناك فاصل بين الفكر والسياسة ڤاريم؟ الفلسفة دوماً تصيغ سياسات الأمم، وكل الطرق تؤدي إلى السياسة، إن تحدثت عن الخبز فهو سياسة، وإن تحدثتِ عن الزواج فهو سياسة، وإن تحدثت عن الفن أيضاً فهو سياسة، نحن نتنفس السياسة ڤاريم ومجتمعنا يسقط، فلقد زادت الفجوة بين طبقات المجتمع وتوحش رأس المال فابتلع بداخله مؤسسات الدولة.

"شعرت ڤاريم أن مهتدى يلقي باتهامات الفساد على رجال الأعمال ومنهم أبيها"

- لكني أؤكد لك أن أبي ليس واحداً من تلك الشرذمة التي تسرق و تفسد المجتمع .

- أنا لم أتهم أحداً ڤاريم، لكن حينما يرشح أباك اسمه للحصول على كرسي فهو لا شك يستغل ماله الذي يعي جيداً أنه سيساعده في الحصول على هذا الكرسي دون معاناة، وهو يقتحم المجلس لحماية مؤسساته وشركاته، لن يدخله مثلاً لحماية الفقراء والتحدث باسمهم .

- لِم لا يتحدث باسمهم؟! هل يجب أن يكون الإنسان فقيراً حتى يتحدث بلسان الفقراء؟! هل كان يجب أن يتنازل عن أمواله ليصير فقيراً حتى يثبت أنه نزيه مثلا؟!

- لم أقل ذلك ڤاريم أنا فقط أعبر عن وجهة نظري، إن دخل المال السياسة فلاشك أنه سيفسدها، أخشى أن يتسبب نقاشنا في أن تحرميني من وجبة السمك عقاباً لي.

وحاول أن يبتسم وكأنه يعتذر عن حديثه الذي جاء في وقت خاطئ .

- لا تقلق مهتدى فأنا أفصل بين السياسة وبين الطعام، فقط نحن في انتظار د. هبة.

يطل من بعيد بعض الشباب، الذين ما إن شاهدوا مهتدى حتى ابتسموا فرحاً وتوجهوا إليه للتحدث إليه، وليعبروا عن إعجابهم واحترامهم لمواقفه الوطنية وأعماله التي تلقي الضوء على ما ينوء تحته المجتمع من فساد، يشكرهم ويحاول أن يستأذنهم فهو مدعو على الغداء مع بعض الأصدقاء.

تدخل ڤاريم لإحضار مشروب مثلج لمهتدى والاتصال بهبة لتطمئن عليها وعلى سبب تأخرها.

تعتذر هبة عن التأخير، فكالعادة عطلها بعض الطلاب الذين يأنسون بالحديث معها في أمور تتعلق بالمحاضرة وأحيانا بالشأن العام.

بعد نصف ساعة تحضر هبة ومعها علبة شيكولاة، ترحب بڤاريم ومهتدى ويجلسون في الشرفة المطلة على البحر..

- أعتذر على التاخير، هل أنت هنا منذ وقت طويل مهتدى؟

(ألقت بسؤالها وقد كسا وجهها الأبيض حمرة أثمرت تفاحتين على الخدين زادت من جمالها وبراءتها، ولكنها كانت حمرة تنفست عن حرارتها التي ارتفعت لشعورها بالغيرة).

- نعم منذ أكثر من ساعة ومعدتي تنبح لا تزقزق من الجوع.

تضحك هبة وڤاريم التي أحضرت كوباً من عصير المانجو المثلج لهبة وأردفت قائلة، محاولة تهدئة هواجس هبة: كنا نتشاجر حول أفضلية النظام الاشتراكي في مقابل توحش الرأسمالية المتمثلة في أسرتي، تفضلي.. سأحضر الغداء حالاً.

تنهض هبة لتحضير الغداء مع ڤاريم .

تدور حوارات بين الثلاثة ما بين الفن المسرحي وتميزه عن فن السينما، وكيف أن الأول أكثر متعة حيث يحدث تفاعل لحظي بين الممثلين والجمهور، وتجدد النص ليحاكي الواقع أحياناً، وتأثير المسرح في الارتقاء بالذوق العام والثقافة، (كانت هذه وجهة نظر مهتدى)، لينتقل الحوار إلى هبة حيث رؤيتها لفكرة تبادل التأثير بين الواقع والأدب، وتتدخل ڤاريم حيث تعترض على أن يتدخل الفنان في الحياة السياسية وتأثير ذلك على قاعدته الجماهيرية، ليعترض مهتدى بقوله:

- الفنان ليس (روبوت) بلا مشاعر يؤدي مهمة، أو كائنا منفصلاً عن الواقع دون أن يكون له حق اختيار موقف فكري خاص به، فهو فرد من أفراد هذا المجتمع يتأثر كما الجميع بنهضته وبانهياره

ترد ڤاريم: كم من فنانين فقدوا شعبيتهم لتحيزهم لموقف سياسي بوقوفهم مع الجانب الخطأ أو مع الحاكم .

ليكون رد هبة: الفنان الذي يتملق الحاكم أو حزباً ما لشعبيته أو لاكتساحه الواقع السياسي لا شك أنه سوف ينكشف للجمهور الذي سيلفظه وينظر إليه نظرة لا تتسم بالاحترام، سيخسر مصداقيته وبالتالي سيدخل التاريخ كمهرج للسلطان، تلك الشخصية التي تظهر في الأفلام

القديمة التي تتظاهر بمواقف لتضحك الحاكم ليرضى عنها وكأنه عبد يُروح عن سيده.
يلتقط مهتدى طرف الحوار ليؤكد وجهة نظر هبة ويستطرد بقوله: الفنان مثله مثل الإنسان العادي، موظفا كان أم مهندساً أو معلماً، هناك من يهتم بتثقيف نفسه بالقراءة ومتابعة المستحدث من أفرع الأدب والفن بل والعلم، وهناك من انشغل بالشهرة ولقمة العيش فتجاهل عقله ليفقد قدرته على التحيز للحق، فنجد الفنان المنافق الذي يصفق لمن يرأسه متجاهلاً فساده أو صلاحيته للكرسي، بل وهناك من لا يخجل أن يظهر بشكل مضحك لجهله أو لادعائه الفهم..
تقاطعه ڤاريم: لكن الفنان إن تحيز لرأي سياسي وناصره لا شك سيكون له تأثير سلبي ولن يكون في صالح الناس؛ لأنه سيكون قادراً على حشدهم لمناصرة رأيه مستغلاً جماهيريته، وهذا ليس منصفاً ..
يرد مهتدى: الفنان أو أي مثقف ليس نبياً يتنزل عليه الوحي، هو إنسان يخطئ ويصيب ولا يجب أن نسلم عقولنا لأي شخصية مهما كانت، فلا يجب أن ننبهر بشهرة أحدهم فنسلم بكل ما يخرج من لسانه، بل يجب أن تكون انحيازاتنا بعيدة عن الإعلام والمشاهير وتأثير ما يدعون أنهم النخبة، ونحن يجب أن تكون لنا مواقفنا

كأفراد في هذا المجتمع ولا نطلب من الآخر حتمية أن يتحيز لنا.
تتدخل هبة: لهذا كانت سعادتي حين قبلت أن تخرج "هيباتيا تعود"، لمعرفتي المسبقة بمواقفك التي أحترمها
ڤاريم: هل تتوقع رفض هذا العمل من جانب الرقابة؟
- ستتعجبين إن قلت لك إن هناك مرونة تثير التساؤلات لقبول الأعمال التي تنتقد الواقع دون رفضها، ولا أعرف السر وراء ذلك، فمنذ عدة سنوات وهناك حرية في الإعلام والصحف لم نعهدها من قبل وأنا بداخلي هواجس لأن الأمر بات محيراً .
هبة: لاحظت تلك الفنانة التي أدت دور هيباتيا قبل وصول ڤاريم، لكن كانت لي عليها ملاحظات..
(انتبه مهتدى وظهر عليه الاهتمام وسألها أن تتابع)
- لاحظت أنها تجتهد لتلقى القبول، وكانت عيناها صادقتان لكن طبعاً كان واضحاً عليها بساطة ثقافتها ولا أدري هل هي فنانة ذات مكانة بالوسط أم لا، فأنا غير متابعة لآخر الأعمال لبُعدي عن البلاد .
يرد مهتدى: شَو.. (كاد أن يذكرها باسمها الحقيقي فانتبه قائلاً): أقصد دليلة فنانة جميلة ولكنها أخفقت منذ سنوات في انتقاء أعمال تليق باسمها فابتعد عنها المخرجون، وهي تحاول أن تستعيد اسمها، لكني أرى

أنها لا تليق بدور هيباتيا، ربما أمنحها دور"ماجدا" أعتقد أنها ستؤديه باقتدار.
ڤاريم: الغانية التي تقع في غرام رجل الدين؟ نعم فهي قادرة على أدائه وستنجح به.
- أخذنا الحديث والطعام الشهي ونسيت أن لدي موعداً هاماً، أستأذنكما وأشكركما على تلك الصحبة الرائعة .
ترد ڤاريم: السعادة كانت من نصيبي أن تعرفت على مخرج مثقف وعلى د. هبة التي أطمع أن تكون صديقة لي وأستاذتي.
تحييه وهبه وينصرف، تجلس هبة مع ڤاريم، فهناك أمور كلتاهما في حاجة للإفصاح عنها للأخرى، وهناك شئ ما أرادتا مناقشته، فالرغبة في مواصلة السهرة كانت من الطرفين، هبة كانت بداخلها بعض المخاوف والأسئلة التي أرادت أن تجد لها إجابة، حول علاقة مهتدى بها، وإن كانت هناك أية مشاعر بينهما، أما ڤاريم فكان يشغلها سؤال آخر عن الحق المطلق والطريق المؤدي إليه.
ڤاريم: ما رأيك في فنجانين من القهوة التركي؟
هبة : يا ليت!!
تصر هبة على أن تقوم هي بصنع القهوة، تنهض معها ڤاريم إلى المطبخ لتجهز لها الفناجين وعدة القهوة،

تجلسان على الأريكة القريبة من المطبخ، فلقد هبت نسمة هواء باردة تأتي دوماً بصحبة المساء ففضلتا الجلوس بالداخل لمواصلة الدردشة.

ڤاريم: تعتقدين ما هو رأي هيباتيا المعاصرة إن خُيرت بين الديانتين؟ وهل لو كان عقلها يصدق بالإسلام وقلبها مائل حباً للمسيحية ماذا كانت ستطيع؟ قلبها أم عقلها؟

هبة: ما يحدث ليس خلافاً بين مسيحية وإسلام فكلتا الرسالتين من رب واحد ونفس القيم والمحرمات واحدة في أغلب الديانات، فالقتل حرام والزنا حرام والربا، الخلاف بين من يؤمنون بأي منهما، وينتج الخلاف من تعدد العقول وتعدد القراءات فتنتج رؤى وتفسيرات متعددة نعتقد نحن أنها عيوب، بل إن هذه الاختلافات إن استوعبناها جيداً فهي في صالح البشر لكن نحتاج أن نحترم ذلك ونتفهمه، نحن جميعاً نتحدث إلى الله، كلٌّ يحدثه بلغته وعقليته التي يتقبلها منا جميعاً، فلا يجب أن يحجر أحد على الآخر في طريقة عبادته للرب ولا في طريقة تواصله معه، الإله فقط هو من يقبل ويرفض، وأنت "ڤاريم" قد منحك الله القدرة على الجمع بين جبهتين أنت خير ممثل لهما وأنه لا تعارض أبداً بينهما، وأنه جائز جداً أن نحيا بهما معاً.

إن أردت رأيي فأنا أرى أن تتجردي من المشاعر عند الاختيار، فالحب يعمي عقولنا فلا تكون اختياراتنا موضوعية بل تكون إشباعاً لتلك المشاعر، تعلقك بالكنيسة سببه، كما ذكرتِ أنت، هو تعلقك بوالدتك وحباً لها وامتنانا، ورفضك لبطاقة هويتك سببه تجبر الأب وفرضه عليك الزواج من إنسان كل ما ربطك به ديانتك التي سجلت ببطاقة هويتك فزادك ذلك نفوراً وبعداً، تخلصي من كل المُشتتات التي تبعدك عن الاختيار العقلي وأعيدي التفكير ولا تسمحي لأي إنسان أن يفرض عليك اختيارك، أنا أيضاً لا أفرض عليك الاختيار، فقط أمنحك الفرص والمنهج الصحيح الذي يجب أن تتبعيه عند التفكير، وعن نفسي فأنا أراك كمجمع أديان يرفض التعصب ويقبل الجميع داخله دون تحيز لأي طرف، ليتنا جميعاً أنت، ليتنا جميعا ڤاريم!!
تصورت حين انفرادنا أنك ستسألينني عن مهتدى لكني وجدتك تأخذينني إلى عالم آخر.
- لماذا أسألك عن مهتدى؟
- ربما تصورت أن هناك تقاربا بينكما واستلطافاً.
- يشغلني هبة الوصول إلى البر، وأن أتمكن من التوازن النفسي والسلام النفسي بداخلي، مهتدى شخصية مثقفة وله قناعاته وما يؤمن به من فكر

ويحارب لأجله، لكن حاستي السادسة تقول إنه ربما يكون غربي الثقافة والفن إلا أن بأعماقه شرقية متعصبة.

- ماذا تقصدين بشرقية متعصبة؟

- أقصد في رؤيته للمرأة ومواصفات الحبيبة .

- وماهي المواصفات التي يميل إليها الرجل الشرقي؟

- اسألي مهتدى..

(وترن ضحكتها الناعمة والتي تنم عن فهم أو ربما امتلاكها لمعلومات عن مهتدى وعلاقاته).

لم تجرؤ هبة على مواصلة الحديث عن مهتدى فاهتمامها المبالغ قد يوصل رساله لقاريم قد تكون مهينة لها.

***

٥٢

يتوجه نصري إلى بيت د. ثروت وفي حقيبته ما وصله من أوراق.

وصل البيت وكان قد سبق حضوره اتصاله هاتفياً بالدكتور ثروت، الذي رحب بحضوره لغياب هبة عند إحدى صديقاتها طوال اليوم.

يدخل نصري، يدعوه ثروت للجلوس بحجرة المعيشة ، يطلب من "الدادة فتحية"، التي تأتي إليه كل خميس واثنين لتعد له طعام الأسبوع، وتنظف الشقة، أن تعد لهما القهوة.

يجلسان ليناقشا ما استجد من أمور، نصري بالنسبة لدكتور ثروت ليس محامي العائلة فقط، بل يراه ابنه الذي لم ينجبه.

يتفاجأ د. ثروت بالأوراق التي وصلت إلى نصري وبمعرفته بالسر الذي احتفظ به لسنوات طويلة، والذي بدأ في التسرب من الماضي كما العفريت الذي يتحين الفرصة للانقضاض على هبة وسعادتها .

يتنفس ثروت مغمضاً عينيه، وكأنه ينتظر أن ينهض من النوم ليفيق ويكتشف أن ما يراه ما هو إلا (كابوس).. استحضرته مخاوفه، نظر أمامه ليتيقن أن ما بين يديه حقيقة ولا مهرب منها .

- نعم نصري انها الحقيقة، ولكن الأبوة ليست حيواناً منوياً برحم أنثى فقط، بل هي سهر وتعب وتربية، وضحكات عشتها مع هبه، وأحزان، إنها سنوات وتاريخ قضيناه معاً، سهرنا أنا وزوجتي على مرضها بالجدري، فرحنا معها حين خطت أولى خطواتها وسندتها حتى لا تقع، تشاركنا اليتم حين ماتت أمها وزوجتي، وفرحت معها حين اجتيازها للثانوية العامة، لقد أسعدتني وزوجتي ومنحتنا البسمة، كيف تقول لي بعد كل ذلك إنها ليست ابنتي ولا ترثني؟ إنه قانون ظالم!!

- إنه ليس القانون د. ثروت، إنه الشرع.

- وسبق وقلت لي أنت وهبه إن الميراث للميت وليس للأحياء، وأنا لم أمت بعد لذا فأنا مازلت حراً أهب ثروتي لمن أحب.

- طبعا من حقك، لكن هذا سيغضب الله وسيغضب عائلتك التي أبدت رفضاً وعدوانية لدكتورة هبة، أنت لا تحميها بل تعرضها لمكائد هي في غنى عنها، هناك حل، رغم أنني أرفضه، فهو يخالف مبادئي، لكنه سيحمي د. هبة من الصدمة.

- ما هو؟

- عقد زواج عرفي بتاريخ قديم بينك وبين أمها الأصلية، هذا سيقلل من حجم الصدمة التي ستتعرض لها د. هبة، لكن لن يمنع عنها كيد العائلة، هنا أنصحك بأن تسوي تلك المشاكل معهم بأن تمنحهم جزءا من الميراث .

- لتبدأ بالإجراءات نصري وبعد أن تنتهي منها أخبرني حتى أتحدث مع هبة قبل أن يخبرها أحد.

- طبعاً، لا تقلق لقد أخذت من ابن أخيك وعداً بعدم التحرك حتى آتي له بما يسعده من أخبار، وأعتقد هم لا يطلبون إلا المال.

- وماذا عن رأيك في هبة يا نصري بعد أن عرفت بأنها ليست ابنتي؟

- د. ثروت، أنا أحب هبة الإنسانة ولم أحبها لأنها ابنة د.ثروت، رغم أنه من أحد أسباب حبي لها أن لها أباً مثلك..

- كل يوم يزداد حبي واحترامي لك نصري.

- وأنت لن تندم على هذا الاحترام ولا هذه الثقة يا د.ثروت.

***

٥٣

حفل كبير مقام بڤيلا عز الدين حمزة لفوزه بكرسي في مجلس النواب، يتصل عز الدين بڤاريم يدعوها إلى الحفل ويصر على حضورها، تعده بالحضور.
كان الحفل في ظاهره احتفالاً بالفوز، أما ما بين الكواليس فكان مختلفاً..
حوارات حول رغبة النظام في ترشيح عزالدين إلى منصب وزاري، فالوزارة المرشحة ستكون غالبيتها من رجال الأعمال، ومثل اسم عز الدين يجب أن يكون له مكانته ومكانه بالوزارة الجديدة.
دخلت ڤاريم بملابسها البسيطة التي تنم عن فتاة تتنصل من بيوت الأزياء التي تتعامل مع عائلتها، بل وتتنصل من تلك المؤسسات التي تحيط صورها بالبيت الذي تعيش به، فتشعر بينها كأنها سجينة لجدران من صلب لا تفقه معنى للحياة ولا التلذذ، الذي يشعر به من لبى حاجة بذل في الحصول عليها الكثير..
ترحب ڤاريم بالحاضرين الذين تجهل أغلبهم وتصعد إلى حجرة جدتها؛ فلقد اشتاقت لها، تحتضنها الجدة :
- أنت فتاة عاقة، أنا غاضبة منك..
(تزرف من عينيها دموع اختلطت بالحنين والاشتياق إلى حفيدتها.

- آسفة يا جدتي كنت مشغولة بالتحضير لدراستي.

- هناك وقت للذهاب إلى الإسكندرية ولا وقت لديك لتطمئني على جدتك؟!

- أنا سافرت لكي أذهب إلى مكتبة الإسكندرية، فأغلب المراجع متوفرة هناك، أين ماما عبير؟

- في حجرتها تستريح من الترحيبات الكثيرة وتهذب مكياجها وستنزل لمتابعة الحفل.

- سأذهب لأسلم عليها، لقد افتقدتها.

- لا تتعبي حالك لقد جئت أنا إليك.

(تدخل السيدة عبير وقد انفرجت أساريرها، فأخيراً شعرت باشتياق ڤاريم إليها ولقد سمعت ذلك بأذنيها .

تحتضنها ڤاريم وتلقي برأسها على كتفها، تستغرق لحظات وكأنها تخزن شيئاً من هذا الحضن بين أضلعها، فلقد وهبها الله أمَّين وليست أماً واحدة، كما منحها ديانتين.

- هيا حبيتي لنهبط للترحيب بالضيوف وإلا سيغضب عز علينا.

تنزل عبير وهي ممسكة بيد ڤاريم للترحيب بالضيوف

***

٥٤

أتقصف رسالتي يا صديق؟
بل اقرأها حتى النهاية
لقد مللت أن أكون مجهولة
غريبة في طريقك
لا تنظر هكذا عابساً متجهماً
فأنا حبيبتك، أنا لك
لست راعية ولا أميرة
وما أنا راهبة
ربما مازلت في ردائي الرمادي المُعتاد
وعلى كعبين عتيقين
ولكنني كسابق عهدي حارة في العناق
"آنا أخماتوفا"

**

شعر مهتدى برغبة تلح على قلبه أن يسمع صوت دليلة، فاستغل اقتراحه أن تؤدي دور ماجدا ليتصل بها ويسمع صوتها، رن الهاتف لترد داليلة:

- آلو

- أهلا دليلة، كيف أنت؟

- أستاذ مهتدى؟! أهلا بك، لم تتصل بي منذ طبق المسقعة، يبدو أنها لم تعجبك .

- بالعكس من شدة لذتها كنت كمن تناول مخدراً

(وألقى ضحكة مجاملة لها)

- إذن فأين أنت منذ ذلك الوقت؟

- أنا هنا وأحدثك لأعرض عليك دوراً هاماً وغنياً

- قل لي إنه هيباتيا .

- هام كما هيباتيا، إنه دور ماجدا .

- ماجدا؟ من هي فأنا لم أقرأ النص كله .

- لاشك أن بحوزتك نسخة اقرئي الدور وسوف ألتقي بك قريبا لنتناقش فيه، فماجدا شخصية ذات تأثير قوي وهام في الأحداث.

كانت في أعماق دليلة رغبة في رؤيته، فلقد شعرت بالحنين إليه وإلى براءته، فهو لم يتعرض لها بأي إهانة أثناء دعوة الغداء، ولم يحاول (الاستظراف) والتحرش بها وعاملها كما وأنها أميرة.

- لوحضرتك فاضي فيا ليتك تأتي الآن نتحدث ونتناول سويا الشاي باللبن.

- أخشى أن يكون وجودي مزعجا لك ويسبب لك إحراجاً.
- بالعكس أنت سوف تتنازل وتأتي لتشرح لي تلك الشخصية وستساعدني ان أفهم أبعادها.
- كما تحبين، ربع ساعة وسأكون أمامك.
- "تُرى ماذا ينتظرني؟ وما الذي جذبني إليها؟ ماهذه الراحة التي أستشعرها حينما أشم رائحة عطرها؟ هناك شئ ما في بيتها يشدني بل وفي صوتها، ما الذي يخيفني ويجعلني متردد الخطى إليها؟ هل هو سمعتها ؟ هل خوف من انجرافي معها؟ أم ربما يكون خوفاً عليها من عقليتي وقناعاتي؟
لا داعي أن أضع لكل خطوة من خطواتي تفسيراً ومعنى، لأدع الظروف توجهني هذه المرة، فيكفيني ما أضعته من سنوات في انتظار امرأة لن تأتي".
كان حواره مع نفسه وهو يقود سيارته في طريقه إليها، كل ما أحس به أنه سعيد لأنه سيراها، سيلمس يديها ويقبلهما، سيتناول معها وجبة العشاء على موسيقى شرقية قد تكون موسيقى لعبد الوهاب أو فريد الأطرش.
يدير راديو السيارة على الـ (إف أم) ليصدح منها صوت علي الحجار بلحن عمر خيرت وأغنية:
"مش عارف ليه بتونس بيكِ وكأنك من دمي،

على راحتي معاكي وكأنك أمي
مش عارف ليه؟
مش عارف ليه؟"
رن جرس الباب، تفتح له دليلة وهي في لباس خليجي، عباءة زرقاء شفافة من الحرير، مطرزة على الصدر حتى الذيل، تحتها بطانة (كت)،بلا أكمام . يطل نهداها من فتحة الصدر في حمالة صدر بلون أزرق فاتح، ظهر رباطها الذي يحيط بظهرها حين استدارت لتدعوه إلى غرفة المعيشة، على يمين الصالون بجوار المطبخ الإيطالي، كانت ترتدي (صندل) بكعب عالٍ جعلها تخطو في تمايل كما عارضات الأزياء، لترتفع درجة حرارة جسده التي لم ترطبها برودة المكيف، تتسرب حبات عرق يمسحها بيده، تبتسم في دلال وغبطة، فلا شك أن نظراته منحتها ثقة، فهو المخرج الذي لم تجذبه أي فنانة أو امرأة حتى الآن، يجب أن تصاب بالغرور .

- اعتدت أن أتناول الشاي باللبن عند المساء، إنها عادة منذ كنت طفلة حيث لا عشاء متوفر في بيتنا فتكتفي أمي بعمل أكواب الشاي باللبن ونسقي فيه بالخبز الناشف، هل تصدق إن قلت لك أنها كانت أحلى وجبة خاصة أنها كانت في حضور أمي والليل.

(تتنهد في حنين وكأنها ساحر يستحضر روحاً من عالم آخر).

- سأشاركك تلك الذكريات وأتناوله معك بالخبز الناشف.

تضحك ساخرة: لا يوجد عندي الخبز الناشف يوجد الباتون ساليه والبريوش

- البريوش؟!

- لا تعجب فلقد تعلمت الكثير من عادات الطبقة الراقية وأعرف الفرنسية وأتحدثها، كما أنني قارئة جيدة والفضل يعود إلى زوجي الأول.

- كما تأكلين سآكل معك حتى لو شاي بإصبع يديك.

(وترتسم على وجه بسمة كلها حنو)

"كانت بسيطة، طيبة، لا تتظاهر ولا تتدعي، تصرفت معه دون أن ترتدي قناع الكاميرات والمشاهير، كانت تحكي له عن طفولتها لتضحك أحياناً وتنطلق الدموع من عينيها كثيراً، لتنتهي آخر القصص بأن يحتضنها كما الأب.

ظلت في أحضانه حتى نامت، يرفعها على يديه ويضعها في الفراش ويسحب عليها الغطاء، يطفئ النور وينصرف.

٥٥

ترحب ڤاريم بالمدعوين وهي في حالة من الشعور بالملل والرغبة في الفرار من المكان، فلقد اكتظ بالأقنعة والمساومات وكأنها كانت في سوق النخاسة، كل شئ يباع ويُشترى..

تدخل راقصة شهيرة لتثير شهوات الرجال ويصحبه سيلان للعاب الرغبة، وتتأجج في قلوب النساء الغيرة، وتتحرك أجسادهن في محاولة لمحاكاة تلك الراقصة التي جذبت انتباه الجميع وكأن على رؤوسهم الطير..

تبحث ڤاريم عن مقعد لتجلس عليه من شدة التعب، يخرج علاء من الفراغ ممسكاً بيدها ويتوجه بها إلى أحد المقاعد ويُجلسها.. تشكره لأنه أنقذها من ذلك الزحام ومن عالم الصفقات.. يترك حديثها فجأة ويسرع تجاه أحد المدعوين ممسكاً بالموبايل ليلتقط بعض الصور للحفل، يشد علاء منه الموبايل ويحدث نقاش حاد بينهما، لم تسمع منه كلمة، ولكنها استنبطت أنه أحد الصحفيين يحاول أن يلتقط صوراً لأحد الرجال المهمين لنشرها بإحدى المجلات..

يعودعلاء ليواصل حديثه معها محاولاً أن يشرح لها ما حدث، فترد عليه ڤاريم: علاء، أنا غير منشغلة بعالمكم ولا يهمني ما ستحكيه، أنا حضرت لأساند أبي وأهنئه لكن لا علاقة لي بما يدور من خطط وقرارات، كما

أنني كنت في اشتياق لماما عبير وجدتي.
- وأنا؟
- أرجو ألا نخوض ثانية في هذا الجدال، أعتقد أننا حسمنا الأمر، أنت كما سامي، أخ أحبه وأعتز به.
- لن ألح عليك ڤاريم سأنتظرك وأملى أن تقدري مشاعري تجاهك وتشعرين بها، سأكون سندك ومظلة لك من البرد والحر.
- أشكرك علاء وأعتذر إن كنت قد أسأت لك آخر مرة.
- أنا الذي يجب أن يعتذر فقد كنت عنيفاً وقليل الذوق معك.
- أريد أن أصعد لأغير ملابسي فلقد تعبت وأريد أن أنام
- تفضلي وسوف أكون بديلاً لك وأملأ الفراغ الذي يحدثه غيابك رغم أن مثلك لا بديل لها.
- تصبح على خير.
تصعد ڤاريم ممسكة بفستانها، تنثني لتخلع حذاءها ذا الكعب العالي، وتسرع صعوداً إلى غرفتها، ألقت بالحذاء ودخلت لتأخذ حماماً ساخناً، بدلت ملابسها ثم ألقت بجسدها على الفراش بعد أن أنزلت الستائر وأغلقت النوافذ حتى لا يصل إلى سمعها الضوضاء القادمة من الحفل.

٥٦

"تنتشر على الفيسبوك حادثة موت شاب تحت التعذيب من رجال الشرطة، بعد أن دس أحدهم لفافة من الحشيش في جوفه، وتتزايد المنشورات الرافضة لعنف رجال الشرطة ويصحبها غضب كما انتفاضة النار تحت الرماد للناس من تزوير الانتخابات الأخيرة، ووضع رجال الأعمال لأيديهم على كل مؤسسات البلد، وبيع أغلبها، وتسريح عدد كبير من العمال والموظفين لترتفع أعداد البطالة.

إنها سلسلة من الأحداث والتغيرات تجاه الرأسمالية الفاسدة التي لم تراع حقوق العمال، فلقد اجتزؤوا منها حرية التكسب وحذفوا منها حق العمال والتأمينات ليتشرد الرجال ومعهم أسرهم.

وهناك في المقابل حرية في الاعتراض والنقد لما تقوم به الحكومة من قرارات مجحفة وتهكم صريح على سياسة الدولة التي تتجه إلى التوريث.. الإعلام دائما في المجتمعات الديكتاتورية يكون بوقاً للحاكم والمتحدث والمبرر لكل قرارته، أن يتجرأ الإعلام والمثقفون والمفكرون في معارضة قرارته والإعلان عنها أثار الكثير من التساؤلات حول من يدعم تلك الانتفاضة والهجمة الشرسة ضد ولي النعم، هل بالفعل فاض الكيل بالناس حتى إنهم تجرأوا على تحديه؟

وهل سمحت الحكومة بحرية الإعلام وترك الحبل، الذي شنقوا به الشباب والفقراء، على الغارب ليشنقوا به أنفسهم؟! هل هي معارضة حقيقية أم كانت (كوموفلاج) لغرض أبعد وهو التخلص من ولي النعم الذي شاخ وشاخت معه طموحاته حتى أنه صدق نفسه بأنه الخليفة وتجاهل من دعمه وهيأ له الأجواء كي يستبد ويبيع في ممتلكات ومصانع، لولا الأطماع والفساد لقادت البلاد تجاه نهضة حقيقية ؟!!

يبدو أن هناك من يعطي الضوء الأخضر للثورة وهم قابعين خلف سياراتهم الفارهة وقصورهم المحصنة، ويمدون بأياديهم المتشعبة كما أذرع أخطبوط لينزعوا عنه الحصانة ويلقونه في مجاهل التاريخ، والبحث عن مؤدٍ جديد وممثل لمصالح القلة الحاكمة؟

إننا لا شك أمام عمل مسرحي ذي حبكة ومؤامرة جديدة لتوجيه دفة التاريخ نحو وجهة تخدم من تصوروا أنهم آلهة لا تُحاسب ولا تقيَّم من عبيد لا يحق لهم إلا أن يسيروا في الأرض كما ثور ربط في ساقية لري أحلامهم وأطماعهم".

"كانت تلك الكلمات آخر ما نشر مهتدى على صفحته بالفيس بوك ليختفي ولا يسمع عنه أحد أي شئ"

٥٧

تقابل ڤاريم طاهر؛ حتى تصل إلى صيغة لملاحقته لها وتعمد الظهور في كل مكان تتواجد به في سيناريو هابط.

أعطته موعداً في أحد الكافيهات بشارع فؤاد بالإسكندرية، بعد أن عادت من القاهرة هرباً من أي نقاش مع جدتها وأبيها فيما يخص خططها المستقبلية متحججة بأنها لابد لها من متابعة أبحاث في مكتبة الإسكندرية في هدوء ..

تلتقي به على مقربة من المسرح الذي تعمل به في مسرحيتها مع مهتدى، يرحب بها مستقبلاً لها بكلمة: "وحشتيني"

- أشكرك طاهر، لا شك أن هذه الكلمة يفهمها بعض الناس غير المتحضرين على أنها اعتراف بالحب وهي تقال بين الأصحاب والأهل.

"كانت بتلك الكلمات تعمل على إغلاق أي رغبة داخل طاهر، ليوجه كلامه إلى اتجاه مغاير، ربما انجذبت إليه في البداية لإحساس طرأ عليها أنه شاب راقٍ ومتحضر، لتتغير مشاعرها بعد أن امتدت اللقاءات بينهما لتكتشف أن هناك شيئاً ما يختفي وراء ابتسامته المصطنعة

واهتمامه المبالغ بها بما لا يتناسب مع تصرفات شاب عصري.

وكما تعودت حين يساورها الشك والقلق، إما أن تبتعد أو تحاول أن تجمع معلومات عن تلك الشخصية، لكن لحسن حظ طاهر أنها انشغلت في المسرحية ومع هبة ومهتدى، فلا وقت لديها لتضيعه في البحث حول طاهر" .

- قل لي متى ستُعرفني على زوجتك وأبنائك؟

- قريبا، لكن لم تهتمين بالتعرف عليهم؟ ما يهمك هو أنا

- وأنت أسرة من زوجة وأبناء لذا يجب أن أتعرف عليك بطريقة صحيحة.

- ولِم لم تستغلي نفوذك لتجمعي عني معلومات كما تعودت؟

"ألقى طاهر كلماته بتلقائية ساذجة حتى أنه نسى أنها لم تحدثه عن أسرتها ولا عن نفوذها ولا عن قدرتها، لتعرف عنه ما تريد دون أن تطلب منه ذلك".

سكتت لبرهة ثم رفعت رأسها لتنظر داخل عينيه في تحدٍ وإصرار لتجعله هو الذي يقص عليها حكايته، وما يريد منها ومن أين علم كل ذلك عنها".

- جميل أنك تعرف قدراتي يا طاهر لكن أنا بالفعل لم أستخدمها حتى الآن احتراماً لك ورغبة مني في أن أحافظ عليك كصديق وأنتظر منك أن تخبرني بمن أعلمك بذلك وماذا تريد؟

- كما أن لك علاقاتك فأنا لي علاقاتي أيضا ڤاريم.

- وبماذا تصف هذا النوع من العلاقات القائم على التهديد والتجسس؟ هل هي فعلاً علاقة صداقة؟ لا أعتقد هل هو نوع من الحب؟ أيضا لا أعتقد، ربما محاولة لابتزاز، ربما. لكن الفترة التي تعرفت عليك فيها كنت كريماً وطيباً وتتسم بما يتسم به أبناء البلد من الشهامة والرجولة..

- هل تتهمينني بالابتزاز ڤاريم؟

- لم أتهمك، أنا أحاول تفسير كلماتك ومطاردتك غير المفهومة والتي أشك أنها حب لشاب خرج من بيئة قيس، ما رأيك أسكت أنا وأنت تتكلم ولن أقاطعك حتى تنتهي مما تريد أن تقوله؟

- اتفقنا ڤاريم، أنا تعلقت بك وأحببتك واعتقدت أنك تبادلينني تلك الأحاسيس، وعندما بدأت تنزوين عني كنت أتصل بك لأجدك مشغولة دوماً، التمست لك الأعذار وقلت لنفسي هي بالفعل مشغولة بدراساتها

العليا، إلى أن وجدتك مع هذا المخرج وحدكما في الشاليه.
"تقفز على ملامحها خطوط العبوس وتتحرك أسنانها وشفتاها وكأنها تقضم ضروسها، محاولة لكظم غيظها، ولتتيح له الفرصة ليتحدث فهكذا سيبوح بما داخله من أسرار، ظلت في سكوتها حتى ينتهي من حديثه "
- هل هذا هو الرجل الذي فضلتيه عليّ ڤاريم؟ مهتدى؟!
الذي لم تخرج من تحت يديه فنانة إلا وتناقلت الألسنة عنه الإشاعات، هل هو يليق بك أكثر مني؟!
ڤاريم، نعم أنا أحبك وعندي يقين أنك تبادلينني الحب وأن ما منعك عني أني متزوج، رغم أنك تعلمين أن علاقتي بزوجتي ما هي إلا محاولة لحماية أولادي فقط، هي أم فقط لأولادي ولا علاقة بيننا إلا أنني ممول لاحتياجاتها هي وأبنائي، وكنت سأحب وأتزوج على أي حال، سواء كنت موجودة أو لم تكوني، لو كنت أريد أن أؤذيك لاستغللت فرصاً كثيرة وكنت نجحت لكني أحميك منه ومن أي إنسان يفكر في أن يعرضك لأي ألم.
- أسمعك، أكمل.
- أنا انتهيت من كلامي، أريدك أن تصارحيني وأرجو أن تكون درجة صراحتك كما كنت معك.

- من ذلك الشخص الذي يريد أن يؤذيني وأنت منعته؟
- سأجيبك لكن كنت أفضل أن تكلميننني عن مشاعرك تجاهي أولاً، إنه فايز.
- فايز؟! وكيف عرفته؟
- هو من عرفني كمترجم ومرشد سياحي، كنت أتردد كثيراً على شرم ومناطق سياحية كثيرة وكان هو دائم التنقل لا أعرف لماذا؟ والتقيت به وتقاربنا إلى أن عرض عليّ أن أتقرب إليك لأوقعك في حبي وألتقط لك صوراً لأقدمها إليه ليساومك عليها انتقاما منك، وأقنعني أنك بالفعل سمعتك سيئة كابنة رجل أعمال فاسد، تستغلين اسمه للتحايل على الرجال، ووعدني بأنه سيمنحني مبلغاً كبيراً ونتشارك في (بيزنس) معاً..
راقبتك ورأيتك وأنت تنزلين من شقتك، وتابعتك بالسيارة إلى أن حانت الفرصة، تركت سيارتي بالقرب من بنها عند ميكانيكي أتعامل معه، وألقيت بنفسي أمام سيارتك لتبدأ الحكاية، صدقيننني بمجرد رؤيتي لك واقترابي منك شعرت بإنسانيتي وبدأتِ تتغلغلين داخل مسامات جسدي، مشاعر لم أجربها حتى قابلتك، أنا لي علاقات كثيرة وتجارب بعدد جولاتي السياحية لكن لم أجرب الحب ولم أعشه إلا معك.

- أشكرك أولاً على مصارحتك لي وأقدر مشاعرك وأصدقك، وأنا أكن لك مشاعر ولكنها تختلف عما تحسه أنت، لها اسم تلك المشاعر ولكن ليست حبا، إنها رفقة، أوربما صحبة، وقد تكون قرابة من نوع ما، أشعر بك كابن عمي أو أحد أفراد عائلتي ولكنه ليس ذلك النوع من الحب الذي يسحرنا إلى أن نجد أنفسنا تحت مراسم التكليل أو طقوس العلاقة الأبدية، أما عن فايز فهو من يقوم باستغلال وسامته ولباقته وذكائه للإيقاع بالنساء وهذا ما اكتشفته وأرسلت إليه تلك المستندات، كان من السهل ان أستغلها وأقدمها لمن يقومون على فضحه وفصله من عمله، ولكني اكتفيت بأن أرسلها له لعله يفيق وينقذ ما تبقى من آدميته، لكن للأسف من مثله تجري في عروقهم دماء الكبر التي لعن بها إبليس، أنا أبدًا لم أستغل نفوذ عائلتي ولا أستخدم علاقاتي إلا لإفادة الناس.

طاهر، أنت زوج وأب، وناجح في عملك، حافظ على تلك المِنح ولا تقع تحت وساوس فايز لتخرب عليك حياتك وتدمر مستقبلك، تأكد أن النهاية لِما كنت ستقوم به إما السجن أو الفصل من عملك أو الموت، أنا لا أهددك لكن هل تعتقد أن أسرتي كانت ستسمح لمثل فايز أن يشوه تاريخها وتسكت؟ أنا حميته مني حين اكتفيت

بإنذاره بأن يبتعد عن النصب، لكن لن أحميه من غضب أسرتي، أما عن مهتدى ورؤيتك له عندي بالشاليه فلم يكن هناك بمفرده، كانت معه كاتبة ومؤلفة العمل لكنها أتت متأخرة، وكنا في جلسة عمل، أنا لا أفسر لك ما رأيته خوفاً منك ولكن احتراماً لما بيننا من صداقة، رغم أنها خصوصيات لا يحق لأحد التدخل فيها ولا من حق أحد أيا كان أن أبرر له تصرفاتي، ولن أسألك لماذا راقبتني؟ فما مضى صار من التاريخ لن أحاسبك عليه لصدقك معي ومصارحتك، أنا لا يهمني إلا دراستي والبحث عن ذاتي، والمسرح منهج يساعدني على الوصول إلى مبتغاي، وترفيه يروقني، إن قبلت هذا الاسم لما بيننا فأرحب بك صديقاً، وإن لم تقبل فأنا أقدر اختياراتك وأحترمها ولن ألومك..

سأدعك تفكر.. وأنتظر منك اتصالا أننا صرنا على خط واحد من التفاهم، أما ما قمت بالتقاطه من صور لي معك - لو بالفعل صورتني - فأنتظر أن تمزقها، فهي ستضر بك ولن تضر بي.. تحياتي .

"نهضت من مقعدها وتركته جالساً في حالة من الطفو في الفراغ بلا قرار، وانصرفت

*****

٥٨

يجلس حسام وفريق العمل في المسرح لليوم الثاني بلا خبر عن مهتدى ولا اتصال، يعرب الجميع عن قلقهم ومخاوفهم عليه، فجأة تظهر دليلة ترتدي الجينز وتي شيرت أبيض قطني، وقد رفعت شعرها في شكل ذيل حصان بلا مكياج، وبدا على وجهها القلق - مساء الخير، أين مهتدى؟ أتصل به ولا يرد هل منكم من يستطيع أن يصحبني إلى بيته؟

حسام: هو ليس بالبيت فأنا قد ذهبت إليه فلم يرد أحد .

دليلة: ربما سافر؟

حسام: كيف يسافر وهناك عمل سيعرض قريباً؟ وكيف يفعل ذلك دون أن يخبرنا؟

دليلة: إذن ما العمل؟ ربما تعرف ڤاريم أو د. هبة مكانه.

تدخل ڤاريم وتعتذر عن التأخير وتسأل: ألن نبدأ البروفات؟ أين مهتدى؟

حسام : لم يحضر ومختفي منذ يومين ونشعر بالقلق

ڤاريم: ماذا تقصد؟ لِم لم يذهب أحدكم إلى بيته ليتحقق؟

حسام: ذهبت ولم يرد أحد، أخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

دليلة : انصرف من عندي وقد وعدني باللقاء بالأمس في كافيه بالمنتزه، ذهبت ولم يأت.
"نظر الجميع إلى دليلة في حالة دهشة للحظة؛ فلم يلتق مهتدى بدليلة فكيف تقابلت الوجهتان؟! إنه المستحيل!!
- ربما تعلم د .هبة شيئًا عنه ."
تقاطعهم إحدى الممثلات قائلة: هل قرأ احد منكم بوست هذا الأسبوع لمهتدى؟ أعتقد أنه ربما هو السبب في اختفائه، فالأمن مترصد لأي ناشط ومعارض هذه الأيام، يبدو أن النظام ندم على مساحة الحرية التي مَنَّ بها على الشعب.
حسام: وماذا في البوست؟
- افتحوا صفحته واطلعوا عليها وأنتم ستعرفون.
ڤاريم: أستأذنكم سوف أذهب إلى مكان ما قد أجده هناك، سننصرف جميعاً ولنتواصل إذا وصل أي منا إلى خبر.
دليلة: هل يمكنني الذهاب معك ڤاريم؟ أريد أن أطمئن على مهتدى ولن أهدأ لو ظللت هكذا بلا خبر.
ڤاريم: تفضلي ..
صحبت دليلة ڤاريم وتوجها معاً إلى أحد معارف ڤاريم من رجالات الأمن.

***

٥٩

بعد انتهاء البروفات في المسرح، صاحبت دليلة حسام إلى أحد المقاهي القريبة من مسرح سيد درويش، كانت حاضرة بجسدها، شاردة في الأفق وكأنها تفتش هناك عن مهتدى أو قوة عليا قادرة على أن تهديها عنه خبرا..

حاول حسام فتح موضوعات شتى حتى يستحضر روحها الغائبة إلى حيث يجلسان، لكن هيهات فقد ضلت كل مساعيه، إلى أن اهتدى إلى فكرة ..

مهتدى، ماذا عن مهتدى؟

"وكأن اسمه كان كما الطائرة التي حطت بها إلى الأرض"

- إلى هذا الحد تحبينه؟

- نعم.. أعشقه..

- كيف ومتى حدث هذا؟ لقد كنتما دائمي الشجار وبدا لنا جميعاً أنكما في تنافر ..

- لا أعرف، لكنه القدر أراد وقد كان..

- هل تثقين في حبه لك؟ فمهتدى هوائي لا يرتبط بأي امرأة لفترة طويلة..

- لا أعرف ما بداخله، فالذي يعلم النوايا هو الله، لكن أستطيع أن أحدثك عن نفسي، أنا أحبه ولا أريد منه شيئا، هل ستصدقني إن قلت لك إن مهتدى لم يمسسني ولم يتعامل معي كما يتعامل معي أغلب الرجال؟

- كيف ذلك؟ هل هو عشق الروح إذن؟

- كنت أحس بمدى حاجته للشعور بالأمان، الإحساس بالعطف والاحتواء وكأنه في حضرة أمه، كان يُقبل يدي وجبيني وخدي كما يفعل الطفل مع أمه.. مهتدى منحني الاحترام، جعل مني أميرة، لم يتفوه يوماً بكلمة تسئ إلي، لم ينبش في تاريخي، لم يسألني يوما عن خطاياي، كان يكتفي بالعطاء الأبوي لي وينتظر مني أمومتي..

لا أريد منه إلا أن يعود، يعود إلى مسرحه، إلى جمهوره، إلى معجبيه،وسأكتفي بأن أدعمه وأقف خلفه، لا أطمع أن يناطح كتفي كتفه، فقط يعود.

"انسالت دموعها وارتفع صوت نحيبها، ليطلب حسام كوباً من الماء وبعده عصير ليمون لها"

فجأة تنهض واقفة: لابد أن أعود إلى البيت لعله يأتي إلىّ أو يصلني خبر يطمئني، لا يجب أن أبرح بيتي أو المسرح، يجب أن أتواجد في أي مكان يقربني منه..

"تركته في حيرته وغيرته وانصرفت".

٦٠

"فان تيجم جويار"، لا شك أن تعريفه للأدب المقارن يختلف عن تعريف "هنري ريماك" و "رينيه ويلك"، وأكثرهم عنصرية المدرسة السلافية التي تنفي وترفض أن يكون هناك أي تأثير أو فضل لأحد على الأدب الغربي، ونعترف لها برؤيتها الاجتماعية للتجربة الأدبية، حيث إيمانها بأن الأدب والفن هما انعكاس للواقع الاجتماعي..

"حي بن يقظان" لابن النفيس و "روبنسون كروزو" لـ دانيال ديفو، ما بينهما من تشابه واختلاف رغم اختلاف العصور.

إلى ماذا انتهى حي بن يقظان بفطرته؟!

إحدى الطالبات: أنا داليا، : التوحيد . ظهر جليا أن ابن النفيس كان متأثراً بثقافته الإسلامية وحاول أن يؤيد فكرته بتلك القصة، إنه علم الكلام بشكل روائي .

- راقتني رؤيتك ونقدك للقصة، بحثنا هذا الشهر سيكون عن هذه التعريفات وما يؤيدها أو ينفيها من الواقع الأدبي.

قبل أن تنهي د. هبة محاضرتها يقاطعها أحد الطلاب سائلا: إذا كان الأدب يتأثر بالواقع الاجتماعي فمتى

يجمل الأدب واقعنا المأساوي؟ وما دور المثقف في هذا التطوير؟

د. هبة: أقدم لك د. هبة أستاذة الأدب المقارن..

- طبعا أعرف، آسف ماذا تقصدين؟

"في ابتسامة حانية تسأله أن يعرف نفسه":

- أنت تعرفني ولكن أنا لا، فمن الأفضل أن تعرفني بنفسك قبل أن تبدأ الحوار، لابد أن أعرف إلى من أتكلم، أليس من حقي؟!

يبتسم الطالب ويعرفها بنفسه: أنا محسن الشويحي

يتدخل أحد الطلاب ساخراً: نار على علم يا محسن ..ألا تعرفينه د. هبة؟

لا أسمح لك بمقاطعة زميلك، ورغم ذلك أنا أحاول أن أتعرف عليكم جميعا فلا فرق ولا تميز أو تحيز لأحد .

- إنه يشير لك د. هبة لتعرفي أن والدي من الرأسماليين هنا

- أهلا بك هنا، أما أبوك فلا شأن له في محاضرتي، أما إجابة سؤالك محسن فهي نعم، الفن والأدب يغيران ويطوران وقد يساعدان على الهدم أيضاً.

- والفساد المستشري في مجتمعاتنا التي سيطرت عليها الرأسمالية المستحدثة ،

وهدم كل مبادئ الاشتراكية التي تعب السابقون في إرساء دعائمها في مجتمعاتنا، من سيواجها؟

- أحد الطلاب: لتمنع أباك أولا، لنبدأ بأسرتك.

د. هبة : إن تحدثت مرة ثانية دون إذن سأطردك من القاعة، أولا محسن أنت خرجت عن مضمون المحاضرة ووجهت الحديث إلى السياسة ونحن هنا نتحدث عن الأدب، أما النقاش السياسي فله مكان آخر أفضل أن تأتي معي إلى حجرتي بعد المحاضرة.

تنتهي المحاضرة وتلملم د. هبة حقيبتها لتفاجأ بنفس الطالب في تهكمه على محسن، يتحدث عن الاشتراكية وأبيه أحد أذرع الأخطبوط وأحد ملاك البلد .

د. هبة: ليتك تتبعني مع محسن إلى غرفتي.

تدخل هبة إلى حجرتها ويلحق بها محسن وزميله وآخرون ..

د.هبة: تفضلوا اجلسوا، لنتعرف أولاً، أنا عرفت محسن وداليا وحلا، وأنت أيها المعارض الغاضب مَن؟ من أنت؟

- أنا سامر المحلاوي.

- يبدو من اسمك أنك أيضا معروف.

محسن: أبوه شريك لأبي في الشركة.

د. هبة: إذن هناك علاقة أسرية تجمعكما، أنتما الاثنان تهاجمان الرأسمالية المتمثلة في والديكما؟

محسن: أنا وسامر آخوين نرفض الإقطاعية التي تسيطر على بلادنا، ونرفض توجهات رأس المال إلى السياسة حتى لو كانا والدينا.

- وأنت داليا وحلا ما رأيكما؟

قبل إن ترد إحدى الفتاتين يدخل الساعي ويتوجه إلى د.هبة قائلاً: العميد يطلب سيادتك في مكتبه للأهمية. تطلب هبة من الجميع الانصراف وتعدهم بلقاء آخر لاستكمال نقاشها معهم.

****

٦١

طرقات على باب شقة صغيرة بسطح إحدى العمارات بمنطقة حدائق القبة، تبدو الشقة صغيرة ولكنها مرتبة، عبارة عن غرفة نوم واحدة، وصالة مستطيلة طويلة، ومطبخ وحمام .

ينهض محسن ليفتح الباب فيجد سيدة في العقد الخامس ترتدي (تاييرا)، وطرحة على الرأس بنية اللون تلتف حول رقبتها ..

- تفضلي .

يشير إليها لتجلس على الركنة بالصالة.

"تدخل وترقب الشقة بنظرات تتناوب الشفقة مع الحزن، فكيف لابن الشويحي، أحد رجالات الدولة ومستشار الرئيس، وسامية حفيدة العليمي باشا، أن يعيش هنا بهذا المكان شديد التواضع؟!

- هل أنت بمفردك أم معك أحد من الحراس؟

- معي الحارس ولكني طلبت منه أن ينتظرني بالسيارة.

- وكيف سمح لك بالصعود بمفردك؟ ألا يعد ذلك تقصيرا منه فربما تتعرضين للاغتيال من مجنون أو حاقد فقير من عامة الشعب الذين يسكنون بتلك البناية التي لا تليق بحفيدة الباشا؟

-لا تكن سليط اللسان فمهما كبرت أو صرت ما صرت إليه فلا تنس أنك تتحدث إلى أمك.

- سؤال يا أمي، هل تعتقدين أنك لو سرت في الشارع بلا حراس هل سيتعرف عليك أحد؟ صدقيني لا أحد يهتم بكم، وما يؤذيكم هو الموكب الصاخب المستفز الذي يحيط بحضور أي شخص اعتلى الكرسي..

- أنت تعرف أنني أرفض تلك البروتوكولات، ولكن نحن لسنا أحرارا دائما، فكثيرا ما نكون معتقلين في مربع المسؤولية وما تفرضه علينا من مظاهر وعلاقات.. ألم يحن الوقت لتعود إلى رشدك وتعود إلى البيت؟

- أي رشدي، هل تقصدين رشدي أباظة، أم رشد أبي، أم رشدي أنا؟

- ما زلت عند عنادك.

"تخرج منديلاً ورقياً من حقيبتها لتمسح به دمعة فرت حزناً على فقدانها ابنها الأكبر والأغلى..

يتجه محسن إلى أمه يُقبل يدها وجبينها، معتذراً لكونه يسبب لها كل تلك الآلام والمشاكل مع أبيه .."

- أمي، من فضلك لا تتعمدي إثارة مواضيع، أنت أكثر الناس علما بنتيجتها، فأنا لن أعود إلى بيت الشويحي

ولا مظاهره الكاذبة، ولن ألمس كفه الملطخ بدم الأبرياء ودم حبيبتي..

- لن أضغط عليك ولكن لترحمني أنا وتأتي إلى البيت حتى أطمئن عليك، أنت في حالة صحية سيئة وفقدت الكثير من وزنك، أرى على المائدة أطباقاً ذات رائحة مقززة، هل هذا ما تتناوله؟

- نعم إنه كباب؟

- كباب؟! هل هذه رائحة الكباب؟

- كباب شعبي، طعمية وفول، ما ألذهما أمي! ما رأيك أن أدعوك لتناول ساندويتش منهما ..

(وضعت المنديل على أنفها لتعلن عن رفضها وشعورها بالقرف)

- هذا ما تبقى للفقراء يا أمي بعدما ابتلع أسياد البلد خيرها..

- هكذا أنت دائماً تحملني ذنب كل المخلوقات

- أخشى عليك والله من تلك المسئولية وتبعاتها إن ثارت الطبقة الكادحة.

- ممكن تطمني على دراستك؟ هل تسافر كل يوم إلى الإسكندرية؟

- لا.. بل يومين فقط، فأنا أدرس أربع مواد فقط.

- بعد أن تنتهي من هذا العام ممكن أنقلك إلى جامعة بالقاهرة.
- لا، أنا مستريح هكذا.
- وماذا عن مصروفاتك؟ كيف تعول نفسك وأنت ترفض أية نقود من أبيك؟
- أقمنا مشروعاً صغيراً أنا ومعي اثنان من الأصدقاء.. ادعي لي..
- ربي يوفقك، ما رأيك أن تأخذ تلك الثيزا، فلقد استخرجتها لك لتغطي مصروفاتك.
- لا.. وأنت تعرفين ردي، لن اتلقى أي نقود، أعرف أنها من حق فقراء هذا البلد.
- أعرف أنني لن أستطيع أن أجاريك في فلسفتك، لقد تأخرت ولابد أن أنصرف الآن، سأنتظرك منتصف الشهر إنه عيد ميلاد جهينة .
- بلغيها تهنئتي وأنني سوف أتواجد.
وضعت نظارتها الشمسية والتفتت لتقبله على خده، طلبت منه كوبَ ماء، يتجه محسن إلى الثلاجة لإحضار الماء فتنتهز سامية الفرصة وتترك له مبلغاً و(شيك) على الطاولة بجوار التلفاز وتنصرف.

٦٢

تجلس ماجدا على الأرض تحت قدمي "سانتينو"، تضع رأسها فوق ساقه ويتحسس هو خصلات شعرها الأحمر..

- لا أريد من العالم إلا أن تدوم تلك اللحظة، أن أظل تحت قدميك، وفي ذلك المسكن الصغير الذي يسع العالم وسعادتي، إنه صدرك، أتمنى أن أموت وتصعد روحي إلى السماء بعد أن تعرج إلى قلبك.

- وأنا احتويت الحياة وتذوقت من السعادة على يديك قضمات، ولكني أخشى غضب الرب، فلقد تخليت عنه لأحيا في صومعتك، كيف انسقت إلى ذلك؟! أنت ساحرة .

- أنا امرأة لي قلب وجسد وعينان كما أنت، خرجت إلى تلك الدنيا لأناصفك المتعة والأرض، لماذا تهرب من الهدف الذي خلقك له الرب وتحاول أن تتمثل به ولن تكون؟ الإله فقط هو من يخلو من الغرائز والرغبات وأنت لست إلهاً.

- نستطيع أن نكون في درجة تقترب من الآلهة إن نجحنا في قتل الغرائز وإلا نطيع أجسامنا.

- ولم القتل؟ ولم لا تطيع جسدك وهو من خلقه؟ إنها مشيئته، أن تكون ذا جسد وروح..

- أنا ضعت مني ماجدا وانغمست في حبك ولا أستطيع أن أتخلص من إدماني لك.

- وأنا تخليت عن عملي وعن الثروة والنفوذ لأجلك، لأجل أن أكون خادمة لك وحبيبة ولا أندم على اختياري، فلاشك أنه قدري ويا له من قدر!

- اطرديني من دنياك ماجدا وخلي بيني وبين الرب، الفظيني ودعيني أولد من جديد طفلاً بلا خطايا، أريد أن أغتسل من حبك، أن أُعمد بمياه نهر الأردن لأتخلص مما علق بجسدي وروحي من أمور الدنيا ومن عشقي لك.

- هل ترى حبي ماءُ آسن تريد أن تتطهر منه حبيبي؟

- لا، أنا أتحدث بصوت يخلو من الإرادة والقوة، أنا أضعف من أن أكون يوحنا المعمدان أو مرقص، أنا هجرت العقل وهجرتني السماء لأظل معتقلاً هنا في الدنيا معك، تقول هيباتيا إن الطريق إلى الإله متشعب وفي كل اتجاه، وكلها تؤدي إليه.

ربما يكون حبك لي طريقاً إلى الإله وأنت تجهل ذلك، فأنا أحلق إلى السماء وأشعر أني تطهرت من آثامي

كلما ألقيت برأسي على رجلك، كيف تريد أن تقنعني أن تلك المشاعر لا يقبلها الإله وهو من زرعها في قلبي؟!
الحب أقصر الطرق إلى السماء حبيبي، دع قلبك يتبتل في صدري واترك روحك تحلق في مدارات الحب لتصل إلى الإله.
(تندمج دليلة في أداء دور ماجدا حتى أن دموعها تتفجر هطولا بلا توقف عند كل اعتراف بالحب إلى حبيبها، وتنسى كل الحاضرين، وتقع في وسط المسرح في إغماءة، لقد رأت مهتدى في الممثل الذي يؤدي دور "سانتينو"، كانت تبعث بكل حوار إليه، حين تحدثت بكل تلك الكلمات كانت ترسلها إليه، إنها لم تكن ترى الممثل المؤدي لدور الراهب بل كانت ترى مهتدى، وهي التي حرمت منه بعد أن منحها حبَّه وثقته ليختفي وتسهر هي طوال ثلاث ليالٍ تنتظره يدق بابها عائداً، مادا ذراعيه ليرفعها عن الأرض ويصعد بها إلى السماء فلا تلمس أقدامها أرضاً تخلو منه ثانية.
يسرع مساعد المخرج ومعه باقي الممثلين ليرفعوها من على أرض المسرح ويذهبوا بها إلى حجرة الاستراحة الخاصة بمهتدى لاتساعها وتوفر المكيف بها، تُخرج ڤاريم زجاجة عطرها لتستنشقها دليلة، تفيق وتنظر في الحجرة، تقع عيناها على صورة مهتدى، تتخيل لحظة

أنه عاد، فترفع رأسها منادية عليه وكأنها تستحضره، لتكتشف أنها مجرد صورة ..
ينظر إليها حسام نظرات غاضبة وناقمة، وتأخذها ڤاريم في حضنها شفقة بها ..
ڤاريم: لو كان مهتدى هنا لأبدى إعجابه بأدائك لدور ماجدا، أنت أبهرتينا جميعاً، سيسعد ذلك مهتدى وستكون مفاجأة له، أحسنت دليلة.
دليلة: هل حقاً سيسعده أدائي؟ هل ترينني ممثلة مسرح جيدة؟
ڤاريم: أنت رائعة دليلة، لقد أبكيتينا جميعاً.
دليلة: أبكاني غياب مهتدى،
(تضع وجها لتخفي دموعها بين كفيها)
- اطمئني ستصلنا أخبار تطمئنا عنه اليوم، عمي وعدني.

****

٦٣

يرن موبايل ڤاريم، تسرع جرياً خارجة من الحمام وبيدها منشفة، تأمل أن تكون المكالمة من عمها ويحمل لها خبراً عن مهتدى، تمسك الموبايل وترد دون أن تنظر على رقم المتصل

- آلو

- ألو ڤاريم، كيف حالك وأين أنت؟

- هبة! أنا هنا أنت التي اختفيت.. يبدو أنك منشغلة جداً

- لا أبدا إنها الجامعة.. ما أخبار البحث عن الذات ؟

- توقفت عن البحث عن ذاتي فأنا أبحث عن ذات أخرى

- من هي؟

- مهتدى ..

- ماله مهتدى ؟

- مختفٍ منذ ثلاثة أيام.

- ماذا تعنين بمختفٍ؟ ربما سافر في رحلة استجمام.

- لا، الجميع في حالة خوف وقلق عليه فليس من عاداته الاختفاء دون مبرر.

(اكتست المكالمة بالحزن والقلق وغلفها الوجوم والصمت من قبل هبة)

- كيف لم نسجل أرقام عائلته حتى نتواصل معهم في مثل هذا الموقف؟

- أنا أقوم بمحاولة إن شاء الله ستأتي بثمارها وسنصل إلى خبر عنه يطمئننا.

- سآتي إليك، أنا في إجازة لمدة يومين من الجامعة.

- أهلا بك، أنا في الشاليه، تفضلي .

تغلق ڤاريم الموبايل وقد تركت هبة في حالة من الحزن الشديد.

***

٦٤

يدخل د. ثروت على هبة حجرتها بعد أن طرق بابها عدة مرات دون أن تجيب، ففتح الباب فجأة قلقاً عليها..

- بابا!

- نعم، طرقت الباب ولم تجيبي .

- مهتدى مختفٍ!

- ماذا؟

- ما سمعته بابا، أين نحن؟ كيف لا نأمن على أنفسنا داخل وطننا؟!

- ربما سافر أو في عزلة، هكذا هم الفنانون .

- لا يا أبي، مهتدى رجل وطني قبل أن يكون مخرجاً، مثقف يحمل هم وطنه، ويشعر بالغيرة عليه، وصفحته على الفيس كلها منشورات تغضب المسؤولين.

- لا تقلقي، لن يطول غيابه، إن كانت هواجسك حقيقية وهو مع الأمن فسيخرج قريباً، أما إن كان في حالة اعتكاف فحجته معه وسيعود أيضاً ليواصل أعماله ومسرحيته، المهم هو ما حدث داخل الجامعة، طمئنيني.

- لا شئ يهم بابا، إنها سقطات من عظيم .

- ماذا تعنين؟

- عميد الجامعة وصلته أخبار تواصلي مع الطلاب في حجرتي، وأن هناك طالبين من ذوي الشأن في الكلية، واجتماعي معهما أقلق إدارة الجامعة لأنهما مشاغبان ولهما أنشطة ضد النظام، ونصحني العميد بالابتعاد عن المشاكل، وطبعاً يعني أن أكف عن أداء دوري، وأخرج خطاباً عاطفياً موجهاً لي وتجرأ على قراءته دون إذني، فحدثت مشادة بيننا على انتهاكه لحريتي والتجسس على خطاباتي، ليلقي لي محاضرة عن كوني أعمل في جامعة خاصة أغلب طلابها أبناء لشخصيات مهمة وذات يد طولى، وأنه يعاملني كابنته تكريماً لك، لينتهي الأمر بأن قدمت له طلب إجازة لمدة يومين.

- هل تحبين أن أتحدث إليه؟

- بالطبع لا يا بابا، سيكون هذا مهيناً لي.

- ومن هذا المُتبجح الذي أرسل لك رسالة عاطفية؟

- ربما يكون طالباً أو معيداً لا أعرف ولم يشغل تفكيري، هذه الأمور اعتدت عليها منذ كنت طالبة في المرحلة الابتدائية ..

(ترسل ضحكة تحمل كل معاني الأنوثة والرقة لأبيها)

- طبعا حبيبتي فأنت بورتريه أبدعه الإله.

تميل على خد أبيها لتضع عليه قبلة ..

- ومعي خطابات أخرى لابد أن أطلع عليها، أشعر أمام تلك الخطابات أنني في القرن السابق، ألا يعرفون التكنولوجيا والماسينجر والواتس آب؟

يضحك ثروت ويخرج وهو يلقي ببعض الكلمات..

- أتركك تتصفحين عبرات وعبارات محبيك.

(ويغلق الباب خلفه)

تتصفح هبة الخطابات التي وصلتها، والتي تعدت العشر، ليلفت نظرها خطاب في ظرف بني ومكتوب عليه "هام"، تفتح الظرف وتقرأ ما به ثم تخرج ما فيه من أوراق وشهادات، تخرج وهي تنادي على أبيها:

- بابا..!

- نعم هبة .

- ما هذا؟

- خطاب، ماذا به؟

- هل هذا حقيقي ؟

- ماذا هبة؟

- خذ أبي اقرأ ما به؟

***

٦٥

" كان خطاباً من مجهول يخبرها أنها ابنة لقيطة وأن ثروت ما هو إلا أب لها بالتبني، ومرفق بالخطاب صورة من تقرير من معمل شهير بأن أمها لا تنجب.
يسند ثروت رأسه إلى مسند المقعد ويغمض عينيه، فلقد تمنى أن تتأجل تلك اللحظة قليلاً، فهو لن يتحمل حزن ابنته ولا ألمها..

- الحقيقة يا ابنتي، الحقيقة أنك ابنتي ولكنك لست ابنة " أسماء".

تنساب الدموع من عينيها، يحاول احتضانها لكي يشعرها بالأمان،

- غير مصدقة، وإن كنت ابنتك أنت، وماما أسماء ليست أمي، فمن هي أمي؟ ولم أخفيتها عني؟

- أمك تزوجتها في السر خوفاً على أسماء، فقد كنت في حاجة لأن يكون لي طفل، وبالفعل تزوجت أمك وأحضرتك لي منحة وهبة، ثم ماتت بعدها بعدة سنوات وأنت ما زلت طفلة في الثالثة من عمرك، واعترفت لأسماء بتلك الزيجة وكتبتك باسمها وطلبت منها أن تغفر لي.

- هل تخبرني بالحقيقة أم أن هناك أسراراً أخرى؟ أرجوك كن صادقاً معي.

- هبة، إنها الحقيقة، لقد مر وقت طويل وأخذتنا الحياة ونسينا كل ذلك، ولم يذكر أيا منا إلا أنك كنت نعمة كبرى وهبتها لنا السماء، ولم تقصر ماما أسماء معك ولم تعاملك إلا كابنة لها، كم من أمهات ابنتي هن مجرد رحم فقط ولا يحافظن على تلك النعمة، إنه أمر يجب ألا يأخذ منك أي اهتمام، لتنسي الماضي وكوني في الحاضر، مستقبلك ونجاحك وكل من يحبونك .

- من هي أمي ؟

"تلجلج ثروت وحاول أن يتهرب من الإجابة "

- هبة، ماذا لو ذهبت إلى صديقتك ڤاريم لتطمئني على مهتدى وحين تعودين سنتحدث في كل شئ، فقط اتركِ لي هذا الخطاب.

***

٦٦

"العالم ينقسم إلى، الأسياد الذين وهبتهم الآلهة العقل والثروة، وهؤلاء هم أبناء الآلهة وهم الوارثون لما خلقته من أرض وأنهار وبحار بل وحيوانات، وهناك العبيد أو العامة الذين يتشابهون في المظهر مع الأسياد ولكنهم بلاعقل ولا يعرفون مصلحتهم، فهم كما الحيوانات، إلا أن لهم أرجل وأذرع وحواس تشبه الأسياد، والفرق بينهم وبين الأسياد كالفرق بين القط والنمر، شتان الفارق بين الاثنين، حين يموت العبد يصير تراباً، أما الأسياد فلا تبلى أجسادهم ولا يموتون، بل ينتقلون ليصيروا نجوماً يهتدي بها العالم، أما أجسادهم فتعود بهيئة جديدة، هكذا هم في خلق جديد دوماً وفي خلود لا يمسسهم الفناء أو الموت، هكذا أرادوا أن نصدق أنهم الأعلون وأنهم المختارون، إنها الهرطقة بعينها، إنه الظلم المجسد، بل إنها اللعنة التي أصابوا بها العالم لينتهي بنا الحال إلى فقراء مسخرين لينعم الغني السيد، إنهم أحدثوا كل ذلك ولا ترضى الآلهة عما كتبوا من قوانين، إنهم يعيثون في العقول فساداً، وينهبون مقدرات الوطن لينعموا بها ويخلفون العامة في معاناة وظلم..

أنا أنثى، خلقني الإله لأناصف الرجل الحياة ولست أدنى منه ولا هو المختار، وليس من العدل أن يظل الفقير فقيراً وأن يزداد الغني ثراءً، وليس من حق أحد احتكار الحقيقة وغلق الأبواب أمام الباقين، وأن يظلوا في

أماكنهم كما تلاميذ خائبين ينتظرون من يملي عليهم الواجبات ويمنع عنهم حقوقهم ..
الحياة زوجان،وكل الكائنات زوجان، المرأة تعقل وتفكر وليست جسداً فقط.
عدت من الحريق لأعلمك أن الفكرة لا تموت، ومن احترق هو من قطع تلك الشجرة وأماتها عمداً وجعل منها حطباً يحرق به الكون، من احترق هو ذلك الأحمق الذي تصور أنه قادر على قتل الحقيقة، ومنع العقل من التنفس، أنا لم أمت ولن أموت، بل مات حارقي ومعه اسمه وغباؤه .. لقد ادعوا أنهم يحمون الفضيلة ويدافعون عن ربهم الذي بضعفهم صلب، وبخنوعهم قتل، ليرتكبوا نفس الخطيئة حين شاركوا في صلب الحكمة وقتل الحقيقة ونزع البصر منا، لنصير جميعاً عمياناً".

- كيف كتبتِ هبة كل تلك الحوارات التي أرددها دون حفظ؟ كيف أثرت كل تلك الرواكد الموجودة في أعماق مجتمع يُعاد خلقه في كل زمان ومكان؟ لماذا حتماً تُقتل الرسل، ويهجر العلماء؟

- هل تصدقين أنني نفسي لا أجد إجابة وأنني فقط أسرد الحياة وأعيد بعث التاريخ، ربما لنحاكم أفكاراً ولدت العداء والعنصرية بل والديكتاتوريات .. نحن من خلقنا الشر ونعيد تشكيله بهندسة وراثية شديدة التعقيد والغباء .

- أخبريني ما بك هبة؟ صوتك ونبرته بهما حزن لم أعتده منك؟

- لا شئ ڤاريم، ربما أكون قلقة مثلك على مهتدى، هل وصلتك أخبار؟

- نعم، عمي أخبرني أنه في أحد مراكز الشرطة وسيخرج إما غداً أو بعد غد، دليلة هي من ستموت كمدًا عليه.

- وما علاقة دليلة بمهتدى؟

- يبدو أنها قصة حب، لقد انهارت على خشبة المسرح ولم تنكر حبها له لحظتها.

- كل يوم أتأكد أن الإنسان مخلوق بداخله عجائب وأسرار لا يمكن أن نتكهن بها.

- لماذا؟ هل لأن دليلة ليست بدرجة ثقافة مهتدى ولا في مستواه الاجتماعي؟

- فعلاً .. لكن يبدو أنه فاتني أنا أستاذة الأدب المقارن، أن الحياة لا تسير كما المعادلات الرياضية، إنها دائماً تنحرف عن مقاييسنا وأحكامنا، وأن رؤيتنا لتكامل شكلين في الهندسة لا ينطبق بشكل حرفي في عالم الإنسان، ربما دليلة أكملت ما في مهتدى من نقص، فكان بينهما هارموني روحي، وأنا التي انتابني حمق العلماء وغرورهم، مازالت النفس الإنسانية عاصية على فك كل رموزها وكأنها زئبق يتسرب من بين أيدينا عند كل محاولة لتشريحها، لفهمها وتوقع ردود أفعالها.

- أعرف أنك تحبين مهتدى وربما أوجعك دون أن يدري، لكنك قيمة وماسة كثيرون يتمنون الاستمتاع برؤيتها دون الاقتراب . ربما لشعورهم بضآلتهم أمامك .

ربما خلقتِ لهدف أسمى .. ألا وهو الوعي .. تحملين رسالة تحتاج أن تظلي بعيدة عن سنن الحياة الطبيعية.. هكذا قدر العلماء والرسل ..

- أنا؟ أشكرك ڤاريم .

- أنا اقول الحقيقة، أنت مكتملة بذاتك، كيان صعب أن يجد ما يشبهه، ليست هذه رؤيتي وحدي بل رؤية كل من تعامل معك.

- لا ڤاريم، أنأ أضعفكم، فلقد أصابتني الغيرة منك كثيراً حيث كنت أعتقد أنك منافستي في مهتدى، وكم شعرت بغضب تجاهك إلى أن صفعني القدر وأدهشني بأن جعل دليلة هي بطلة قصة مهتدى وكنت أنا "الڤلين" الشريرة التي تغار ..

- لا حبيبتي، أنت إنسان يشعر، يحب، يخاف، يتألم ويحلم، ومع الحب يولد حب التملك والغيرة، إنها الغريزة..

بكت هبة وانهارت قواها وكأنها كانت تدلق كل ما بأعماقها من أوجاع وإهانات ورثتها مع حظها، فهي التي لم تختر أن تولد يتيمة الأبوين، ربما كانت طفلة حملتها أمها سفاحاً، فلا جذور لاسمها، بل كانت

كمخلوق طفيلي تعايش على خير أسرة ثروت، والذي أراد أن يورثها ماله، الذي ليس لها حق فيه .. ظلت تبكي وتحاول ڤاريم تهدئتها، حتى أنهكها النحيب. اعتقدت ڤاريم أنه بكاء بسبب حبها لمهتدى من طرف واحد، إلا أن جروح هبة كانت في كل أنحاء جسدها وروحها..

حاولت ڤاريم أن تتحدث في موضوع آخر لكي تأخذ بيد هبة لتخرج من حزنها:

- دليلة أتقنت أداء دور ماجدا حتى أني أتوقع لها، إن أدته كما فعلت أثناء البروفات، أنها بلا شك ستحصل على جائزة وستكرم، فلقد توغلت داخل الشخصية وعاشتها حتى إننا صدقنا أنها ماجدا الغانية.

كفكفت هبة دموعها وبادلت ڤاريم الحديث:

- وأنت تجسدين هيباتيا كما رسمتُها، حتى أن ملامح وجهك صارت تظهر مرافقة لاسمها كلما ذكرتها، وربما كانت هيباتيا هي أنت إن كانت لدينا صورة لها..

- هيباتيا كانت منشغلة بالحقيقة وأنا ممزقة لأرسو على شاطئها .

- هل أخبرتِ دليلة بما عرفت عن مهتدى؟

- طبعا، كانت أول من كلمته، كادت تصرخ من السعادة.

- لابد أن أنصرف الآن فالوقت أخذنا ولم نع أنه الليل..

- لماذا لا تبيتين هنا معي؟! الوقت تأخر وأنا هنا وحدي وسيسعدني إن قضيت الليلة هنا معي .

- نكمل حديثنا عن هيباتيا؟

- بل عن هبة.

تطلق ڤاريم وهبة ضحكة، ضحكة هبة لم تكن من القلب، فمنذ ساعات هناك من غرس سكيناً في صدرها، وسيكون أمامها وقت حتى تتعرف على حقيقتها ومن تكون، كارثة أن نعيش سنوات طويلة في جسد شخصية ليست لنا!!

**

٦٧

دخل سامي يصحبه علاء ومجموعة من موظفي الشركة لاجتماع مع مجلس الإدارة لشركتهم الجديدة، التي تم شراؤها منذ أسبوع، لتنظيم العمل بها وبالمصنع التابع لها.

ينتهي الاجتماع ويطلب سامي من علاء وأعضاء مجلس الإدارة القديم، حتى يتم إجراء ترشيح الأعضاء الجدد، متابعة العمل وإعادة توزيع المهام إلى أن ينتهي من وضع اللائحة الجديدة مع والده..

ترتفع أصوات شجار يدور بين عدد من العمال والموظفين ورجال الأمن .. يسرع علاء ومعه مساعده لاستطلاع الأمر .. يطلب علاء من العمال الهدوء وأن يتحدث عامل واحد نائباً عن الجميع حتى يفهم المشكلة وسبب الشجار الدائر..

- نحن عمال باليومية في المصنع، ووعدنا مدير المصنع أنه سيقوم بتثبيتنا أكثر من مرة، وطلب منا أن نصبر على المرتبات الهابطة والحوافز المتدنية حتى تتحسن الأمور، وها هو يبيع المصنع والشركة ويتركنا دون أن يعطينا حقوقنا أو يثبتنا، ومعنى ذلك أن أصحاب الشركة المستجدين سوف يتخلون عنا ونتشرد وأولادنا..

يتحدث عامل آخر: نعمل لسنوات في خدمة المصنع وتزداد الأرباح وتزيد ثرواتهم وتضعف صحتنا ونكبر ثم يتخلون عنا بلا أي حقوق؟!

سامي: لقد استمعت إليكم وسوف أدرس مشكلاتكم جميعها، ولكن نحن استلمنا الشركة والمصنع منذ عدة أيام فقط ونحتاج لتنظيم العمل، ولا تقلقوا سوف تستلمون حقوقكم كاملة، إن كانت لكم حقوق عندنا، أما إن كانت مستحقاتكم لدى المالك القديم فلا ذنب لنا، فنحن استلمنا المصنع والشركة ومما بها من موظفين ثابتين ولا علاقة لنا بمن كان يعمل واسمه غير مدرج في ملفاتنا.

يثور العمال وتزداد ثورة غضبهم وترتفع أصواتهم وهم يحسبنون على الظالم ..

خرج سامي متسائلاً عما يحدث، فيقص عليه علاء ملخص المشكلة .. يطلب سامي من العمال الحضور إلى مكتبه ليتداول معهم الأمر ..

يدخل العمال جميعهم إلى مكتب سامي، وبعد قليل يخرجون وهم يدعون الله له بالستر والتوفيق..

يتجهم وجه علاء ثم يدخل مكتب سامي مستفهما منه عما دار، ومعاتباً له بأن قراراته سوف تخسر الشركة كثيراً بسبب مجاملته للعمال ..

ينهي سامي الحوار مع علاء بقوله:

- علاء .. كف عن التعامل مع العمال والموظفين كأنهم عبيد عندنا، فهم من يقومون بكل العمل والإنتاج، وإن خسرنا رضاهم ستسقط الشركة وستكون الخسارة أكبر، المصانع تقوم على أكتافهم، أرجو أن تسرع للحاق بأبي في مجلس النواب، فهو ينتظرك والملفات التي أعددتها له..

- سأذهب حالا.

- بعد أن تنتهي يا ليتك تعود هنا لنذهب معاً إلى المصنع

- هل ستنتظرني أم ستسبقني إلى هناك؟

سأنتظرك لأنني سوف أطلع على ملفات الموظفين والخطة التي سنناقشها في الاجتماع القادم.

****

٦٨

- اهلا فايز

- ڤاريم؟! يالها من مفاجأة! افتقدتك جداً .

- أعتقد كان لابد من أن تستغل فقدي وتنساني.

- لا يجوز ڤاريم .. مثلك لا يُنسى بسهولة .

- لن أطيل عليك فالمكالمة تصيبني بالغثيان، أرجو أن تتقبل نصيحتي للمرة الأخيرة وتتجنب أن تحتَّك حتى بظلي، فأنا اكتفيت بأن أرسل إليك بتلك المستندات ولم أستغلها للإضرار بك، وابتعدت ونسيت كل ما حدث ربما تُقيِّم موقفك وتقوّم نفسك، لكن الغرور استبد بك وتجرأت وحاولت الإضرار بي، هذه المرة سأحاول أن أنسى لكن لو لفظ اسمك بجوار أذني مرة ثانية، فلن أبخل عليك ببعض الردود التي لن تعجبك.

- لا أفهم لِم كل هذه القسوة؟! فكل ما وصل إليك هي اتهامات باطلة وهناك من يحاول الإيقاع بيني وبينك لمصلحةِ ما.

- كف عن الكذب وتوقف عن ممارسة التمثيل فأنت ممثل سئ .. أنا لن أكرر طلبي .. سلامي لطاهر.

أغلقت الهاتف وتركت فايز في حالة من الغضب والشعور بالهزيمة.

طرقات على باب ڤاريم في ڤيلتها بالمنصورية، إنها عبير زوجة أبيها، تدخل عبير، تلقي التحية على ڤاريم..

- مساء الخير حبيبتي .

- مساء الخير أمي .

- لي وقت طويل لم أسمع منك هذه الكلمة، افتقدتك ڤاريم .

- وأنا أيضاً، حين شعرت باحتياجي إليك عدت من الإسكندرية على الفور .

- منذ الحفل لم أتلق منك اتصالاً أو خبراً يطمئنني ولا تردين على أغلب الاتصالات.

- كنت منهمكة في التحضير للرسالة وبارتباطي بالمسرح .

- المسرح؟!

- نعم سأحكي لك..

(تمسك بيدها وتقعدها على الـ (بانكت) المقابل للسرير وتحكي لها عن المسرحية)

- لكن هذا ربما يسبب غضب أبيك وربما يعترض .

- لا أعتقد سأتمكن من إقناعه .وطبعا أنت معي .

- فكرة المسرحية قريبة جداً من شخصيتك ڤاريم .

- لهذا تعلقت بها وبالفكرة، وأجد نفسي حين أنطق الحوار بصوت هيباتيا .. لقد وجدت الكثير من الإجابات على تساؤلاتي مع هيباتيا، ود. هبة قد أرسلها الله لي لتأخذ بيدي إلى السلام.

- أتمنى لك حبيبتي السعادة.

- ما رأيك أن تحضري معي إحدى البروفات فأنت تغرقين مع أبي في المصانع والبيت وتنسين نفسك.

- أكيد سأحضر معك لأزورك وأرى ڤاريم تقف على المسرح مرة أخرى، فمنذ كنت بالجامعة وقمت ببطولة تلك المسرحية لشكسبير، أحسست أنك موهوبة بالفطرة .

- حبيبتي يا بيرو.

تبتسم عبير امتناناً وحباً لڤاريم التي عوضتها عن أمومتها القفر..

- لاحظت عصبيتك في الفون مع شخص ما لم أقصد التجسس عليك ولكن وصلت الكلمات إلى أذني.

- لا تشغلي بالك إنه شخص تافه انتهازي قابلته بشرم وقد حاول أن يمارس نصبه علي، فكشفته، لكنه حاول أن يرد لي ذلك بأن حاول ثانية الانتقام، فكنت حازمة معه وأوقفته عند حده.

- ما اسمه وصفته؟

- لماذا؟ الموضوع انتهى.

- لو فعلاً تثقين فيّ أريد أن أعرف اسمه، مجرد دردشة.

- فايز .

- يعمل هناك بشرم؟

- نعم .

- في الفندق الذي ننزل به؟

- نعم .. رجاء لا تتدخلي يا أمي في الأمر فيكفي ما أنت به من ضغوط فأنا قد أنهيت الموضوع.

- ومَن طاهر هذا؟

قصت ڤاريم حكاية طاهر وكل ما دار بينهما وبين فايز لتشعر بالراحة، فلقد كانت في حاجة إلى قلب أم وشخص أمين تتحدث إليه دون أن تشعر بخجل أو خوف

- متى ستسافرين إلى الإسكندرية ؟

- غداً لأطمئن على مهتدى .
- سأحدد معك موعداً لأحضر بروفات العمل.

فرحت ڤاريم وضمتها في حضنها، ثم هبطا معاً لتناول الغداء مع جدتها، أما أبوها فغالبا ما يقضي أغلب اليوم في العمل ومعه سامي وعلاء

***

٦٩

- سانتينو! أرجوك لا تقتلني فرحيلك معناه موتي، لقد عرفت معنى الحياة الطاهرة التي ترتشف قطرات حياتها من الحب.

- ماجدا! أنا رمز الفضائل المتحدث باسم الرب ولا يجوز أن أرتكب الخطيئة.

- هل تذكرت الآن أنك تعيش معي الخطيئة بعد أن جعلت قلبي معلق بك وحياتي تتقوت على وجودك؟

- لقد أغواني الشيطان.

- بل أنت الذي أغواني وأقنعني أن صحبته هي الطهر والنجاة من مستنقع الخطايا، لا يحق لك بعد أن جعلتني أتذوق طعم البيت والحب أن تتخلى عني.

- افهميني حبيبتي .. أنا أموت في كل يوم أفكر فيه بالبعد عنك، ولكنه دوري ورسالتي، فمن اختار أن يكون رمزاً واعتلى المنبر يجب عليه أن يضحي في سبيل ما يؤمن به وإلا كان الانهيار .. وأنا أمثل رجل الدين المتحدث باسم الإله، لا يجب أن تذل نفسي إلى الدنيا بل يجب أن أتخلى عنها وأتقمص دور الرب..المتحدث بلسانه .. إنها رسالتي ..

- أنت لست إلهاً أنت إنسان له رغباته وأخطاؤه، أنت تأكل وتجوع وتبرد وتعطش، أنت تصدق كذبة اختلقتها، أنت لست إلهاً أنت مثلي تميل وترغب .. يالك من تعيس منافق، تحيا بوجه وتخفي وجهاً آخر، أنت لا تنافق الناس بل تنافق نفسك والسماء، لترحل ولا تعُد هنا أبدا، أنا التي يجب أن أطهر فراشي مما علق به من رائحتك، أطهره من دنس الكذب والنفاق .. اغرب عن وجهي!

(تسقط ماجدا أرضاً وتلقي بوجهها ليتلقاه كفاها وتبكي)

- أنا لا أبكي رحيله بل أبكي سذاجتي حين صدقت وعوده وكلماته عن حبه وعشقه لي وارتماءه الكاذب تحت قدمي باكياً حنينه إلي، أنا ماجدا التي سجد تحت قدميها أعظم الرجال وتمرغوا في تراب حذائي، أسقط في فخ رجل يدعي أنه نائب الرب!!

ليتني مت قبل هذا، لن أعود ماجدا الغانية، سأظل تلك المرأة التي تحدت جسدها ورغباتها وضعفها وسأسمو لأكون السيدة التي طردت الشيطان من بيتها وخلصت روحها من الخضوع إليه.

تصفيق حاد وصافرات إعجاب من حسام وزملائه .

تسارع ڤاريم لتستقبل دليلة، تلك الممثلة التي تفوقت على نفسها، ونجحت في أن تكون ماجدا بامتياز.

تسلم دليلة على الجميع وهي تمنحهم جميعاً نظرات امتنان وحب، وتستأذنهم في الانصراف ..
تعود إلى البيت لتسترجع لحظاتها مع مهتدى، تشرب قهوتها في فنجانه المفضل، تسترخي على الأريكة التي فضلها، تمسح وجهها بمنشفته التي رفضت أن تغسلها حتى لا تروح منها رائحته .. تضع المفتاح في الباب تفتحه وتشعل النور لتفاجأ بأن هناك حركة ما في شقتها!!

*****

٧٠

- نصري، هل انتهيت من الأوراق؟ هبة عرفت كل شئ

- نعم لقد أحضرت لك الأوراق، وأنا في طريقي إليك.

- لا ليس اليوم، هبة في طريقها، لقد اتصلت وسوف تكون بالبيت بعد قليل، فقط لا تحدثها إلا بعد أن تلتقي بي حتى نرتب ما سنقوله معاً.

- لقد اتفقنا أنك تزوجت عرفياً وأنها ماتت وهذه هي الحقيقة، لِم الخوف؟

- لا أدري لكنها المرة الأولى التي أظهر فيها أمام ابنتي كاذب .

- أنت لم تكذب د. ثروت، أنت بالفعل نسيت الأمر ولم تذكر إلا أنها ابنتك .

- الآن لن أكون طيباً معهم وسوف أنفذ ما كنت قد قررته من قبل، ولن أترك لهم من الميراث شيئاً .. لقد تآمروا لتحطيمها وقتل سعادتي.

- لنترك تلك الأمور الآن، ما يهمنا أن نتجاوز تلك الكارثة مع هبة.

- سأغلق الآن يبدو أنها جاءت، في حفظ الله .

- في حفظ الله .

تدخل هبة شاردة الذهن يغطي وجهها الحزن، فيزداد جمالها، وتغشى عينيها الزرقاوين حمرة فكانت كما السماء لحظة غروب الشمس، اجتمع النهار والغروب في عينيها.

- كيف أنت حبيبتي؟

- لست بخير أبي.

(تلقي بنفسها بين أحضانه وتترك نفسها للبكاء على صدره):

- هناك صراع بين أمرين في صدري كليهما قاتل، أريد أن أتعرف على أمي الحقيقية، وفي الوقت نفسه لا أريد أن ينافس أحد بنوتي لأمي أسماء، وأخاف المفاجأة أبي.

- ما الذي يخيفك ابنتي؟ أنت ما زلت ابنتي وأسماء هي الأم التي احتوتك وضمتك إلى صدرها وعاشت معك كل لحظة، طفولتك وصباك، هي أمك .

- ومن ولدتني أبي وماتت أليس لها الحق في أن أكون لها ابنة بارة؟

- طبعاً.

- من هي أبي؟

- هي سيدة محترمة كانت تعمل مديرة بيتنا، كانت متعلمة ومثقفة وجميلة أيضاً، كانت تشبهك إلى حد كبير

غير أنك أجمل، ليتنا ننتهي من هذا الأمر وتفيقي لي، مَن حاولوا هدم هذا البيت هم من تدافعين عنهم وتريدين أن تتخلي عن ممتلكاتك لأجلهم وسوف يحاربون بكل أسلحتهم لحرمانك من كل شئ، وفي سبيل أطماعهم لن يتوانوا عن فعل كل ما هو حقير.

- أبي .. أريد أن أجري تحليل (دي إن إيه).

- ماذا؟

- أبي إن كنت تريدني أن أستمع لنصائحك فلابد أن تساعدني حتى أستريح وأريح ضميري .. أنت تعلم أنك لو كتبت لي ثروتك سوف يطعنون في ذلك وسيطالبون بالتحليل، "بيدي لا بيد عمرو"، أريد أن أتأكد حتى أتمكن من مواجهتهم ولا تعرضني للإهانة.

- لا، لن أسمح لك أن تشككي في أبوتي لك ولن أسمح لهم بهزيمتي وإهانتك.

- كما تحب أبي، لنشرب الشاي باللبن الذي نحبه أنا وأنت ولنسترح من هذه الأمور التي عكرت صفو حياتنا.

في الصباح ترتدي هبة ملابسها.

- حبيبتي، أليس الوقت باكراً على ذهابك للجامعة؟!

- نعم، سوف أمر على ڤاريم فلي بعض الأوراق نسيتها هناك ثم أتوجه إلى الكلية.

- هل ستنهتي محاضراتك متأخراً؟

- ربما، لا تقلق لو تأخرت سأتصل بك.

- الله يحفظك ابنتي.

- ويحفظك، ثروتي.

يبتسم لها سروراً، فهي لا تناديه بهذا الاسم إلا إن كانت سعيدة، اطمأن أنها نسيت كل ما أحزنها وأغلق الباب خلفها وعاد ليتصفح الجرائد.

تنزل هبة عند عمارة بها معمل تحاليل مشهور، ثم تنزل لتركب سيارتها متجهة إلى الجامعة.

*****

٧١

في حوار تليفزيوني بإحدى القنوات الثقافية، وكان الموضوع عن الحالة الأدبية في العالم العربي في عصرنا الحالي، تستغل د. هبة الحوار لتندد بكل ما يهين المواطن العربي وكل ما يحِد من حريته، وتعلن في نهاية كلمتها التعسف والظلم التعذيب الذي وقع على المخرج مهتدى البوقيري، وتتهم من اعتقله ونظامه بأنه نظام ساعد على انحدار الحركة الأدبية والفنية، بل والعلمية، وأنه نطام يهدم المستقبل المتمثل في شبابه ومبدعيه.

يقطع البرنامج وتلوم المذيعة هبة على أنها خرجت عن النص المقترح، تعتذر هبه على خروجها على النص...

- أعتذر إن كنت أحرجتك أمام المسؤولين، ولكن إن تعرضت لأي تحقيق فلتلقي باللوم عليّ، ولا تنسي سيدتي أن الظلم إن توحش سيبتلعنا جميعاً وأنت لست بعيدة عنه ولا أنا .. لابد أن نتكاتف جميعاً لمنعه من أن يتضخم ويكبر.

تحيي هبة الجميع وتنصرف، تركب السيارة وتتوجه إلى المسرح لمتابعة البروفات، وقد شعرت أنها قد أدت دورها كمثقفة مسؤولة عن كلمتها وما آمنت به.

٧٢

يعج الفيسبوك بصور لمهتدى مع بعض الفنانات في أوضاع رومانسية، وتصريحات لعدد من الفنانات المغمورات بسوء سلوك مهتدى واستغلاله لمركزه واسمه ليراودهن عن أنفسهن، وبعضهن يضعفن والبعض اعتزلن حفاظاً على شرفهن.،

تشاهد ڤاريم ذلك، فكرت في الرد على تلك الفيديوهات أو البوستات، ولكنها آثرت التريث حتى تلتقي بمهتدى، فلقد وصلتها أخبار عن خروجه، لكنه لم يعد إلى بيته بل توجه إلى مكان ما ولم يتصل بأحد.

تتواصل ڤاريم مع هبة وتسألها:

- هل شاهدت ما نشر بالفيسبوك والتلفاز عن مهتدى؟

- نعم .. يا لها من حقارة! أن تسلط السيوف في وجه إنسان ولا نمنحه فرصة للدفاع عن نفسه، واستغلال فرصة سقوطه أو تعرضه لوعكة، أتمنى ألا تصل لمهتدى هذه البرامج فيكفيه ما تعرض له.

- الكارثة التي تتعرض لها الشعوب تحت نير الديكتاتورية أن يكون الإعلام بوقاً لصوت الحاكم بلا أذن تستمع للشعوب، هكذا لا يسمع الديكتاتور إلا نفسه فيقدسها حتى يقتله غروره. يقذف الناس بالإتهامات ولا

تتاح الفرصة لهم للرد على تلك الإتهامات.. هنا سقط " المتهم برئ حتى تثبت إدانته " لتترتفع كلنا متهمون حتى تثبت برائتنا" شئ ينافي قيمة العدل .

- لا أعرف أين مهتدى فلقد علمت أنه خرج منذ يومين ولكنه لم يتصل بأحد منا ليطمئنا.

- للغائب عذره ولا يحق لنا أن نضع استنتاجات حتى يظهر ويرد.

- لك كل الحق، الكارثة أن المسرحية توقفت وتم غلق المسرح .

- المهم مهتدى هبة، نطمئن عليه وبعد ذلك كل شئ سهل، قد أتواصل مع أحد المسؤولين لإعادة فتح المسرح واستكمال البروفات، فقط تهدأ الأمور.

- ماذا بك هبة؟! أشعر أن وراء نبرة صوتك حزناً ما.

- لا شئ حبيبتي، فقط ما نتعرض له هذه الأيام صار أمراً لا يُطاق .

- ما رأيك أن نلتقي لنتحدث؟

- أنتهي من محاضراتي وبعض الالتزامات وسوف أنسق معك لنلتقي.

تغلق هبة الفون وتجري على خديها دموع كتمتها خوفاً أن تفضحها أثناء محادثتها لڤاريم.

فتحت هبة التقرير الذي استلمته من معمل التحاليل، واصلت القراءة والبكاء، لم تتوقف إلى أن دخل عليها د.ثروت .

- ابنتي .. ماذا بك؟ ما كل هذه الدموع؟ماذا بك؟

تمد يدها بالتقرير مناولة إياه لأبيها .

- ماذا يوجد بهذه الورقة وأحزنك إلى هذا الحد؟

يقرأ ما بالتقرير، يبحث بقدميه عن مركز وقوفه لأقرب كرسي ليلقي بنفسه فوقه.

- من قام بهذا التحليل، ومتى؟

- أنا أبي .. (تتردد في نطق كلمة أبي) .. تتوقف، تلقي بنفسها فوق السرير وتخفي رأسها في وسادتها.

- هبة .. هبة! لا أجد كلاماً يخفف عنك ألمك أو تلك الكارثة.

- ماذا ستقول د. ثروت؟ لا يوجد كلام يقال.

- ابنتي، إنها تقارير مزورة لا تصدقي كل هذه الأوراق، إنهم كما المسعورين ويغرسون أنيابهم في كل من يشكون في أنه قد يحرمهم من الثروة.

- يكفي، يكفي .. أرجوك لا تردد كلمات ساذجة، كف عن الكذب؟

- أنا كاذب هبة؟!

(تَسرع قافزة من سريرها إليه تُقبل يده طالبة السماح)

- سامحني أرجوك فلك الفضل في إنقاذي من التشرد والضياع، لولاك لكنت واحدة من هؤلاء الذين بلا مأوى

- أنت ابنتي، ربما لا أكون متحدثاً لبقاً، لكن لا أصدق ما بيدك من أوراق، أنت ابنتي رغماً عن العلم وعن التقاليد الماسخة، أرى فيك نفسي، لقد ورثت عني الكثير ومن أمك، وكل هذا ليس كذباً.

(تقبل يده وتلقي بنفسها في حضنه).

- هبة .. أرجوك انسي كل هذه الترهات.

(يمسك التقرير يمزقه ويلقي به في السلة، ثم يتردد ويمسك الأوراق الممزقة قائلاً:

- يجب أن تحرق هذه الأكاذيب.

- ماذا ؟ د. ثروت؟

- بابا .. لا يجوز أن أكون إلا بابا .. انهضي هيا سأدعوك على العشاء بأرقى المطاعم بالإسكندرية

****

٧٣

تصحو ڤاريم على اتصال من زوجة أبيها تطلب منها الدخول على موقع إحدى الصحف الحكومية لأمر هام، تغلق ڤاريم التلفون وتفتح الموبايل وتتصفح الصحيفة، يلفت انتباها صورة فايز ومعه طاهر وخبر القبض عليهما بتهمة التحايل والنصب، تسرع بالاتصال بزوجة أبيها..

- طنط من فضلك كما تسببت في القبض على طاهر أرجو أن تخرجيه.

- إنهما نصابان ڤاريم .

- أرجوك يا طنط، لا تجعليني أندم على فضفضتي معك، أنا لا يهمني فايز ،من يهمني هو طاهر، فهو أب وزوج وشاب مجتهد، أنت تحطمين بيته.

- سأحاول ولكن أعتقد أن الأمر صعب حيث إنني علمت أنهما اعترفا بجرائمهما.

- أية جرائم؟ طاهر أخطأ ولكنه لم ينصب على أحد.

- دعي الأمر للتحقيقات ولو كان بريئاً سيخرج وإن كان شريكاً لفايز فلقد أخذ ما يستحق.

- تمام بيرو .. مضطرة أن أغلق الفون الآن ..

تسرع ڤاريم بارتداء ملابسها وتهبط مسرعة لتلحق بطاهر وفايز في محبسهما بالقاهرة.

٧٤

تصرخ منادية: "مهتدى"، إنه أنت، أنت لست حلماً.
تحسست وجهه بين يديها وقبلته لتلمس شفتيها دمعة انجرفت فارة في صدق من عينيه..

- أنت تبكي مهتدى؟

- نعم أبكي .

- هل تعرضت للتعذيب؟

- أقصى أنواع التعذيب أن أتهم في حبي لهذا البلد، في غيرتي على ترابها.

- حبيبي، لننس ذلك .

- كيف أنسى؟ تلك الأيام كانت فاصلة في حياتي، هل تتصورين أن أُهان في بلدي من أهلي، لم يشفع لي تاريخي ولا أعمالي ولا تبرعاتي التي وهبتها، ولم يحررني من بين أيديهم إلا جنسيتي الغربية؟! لقد تركوني لأني قدمت لهم ما يثبت أني لست ابناً لهذا البلد!!، حين قدمت جواز سفري الغربي.. تركوني خوفا من جنسيتي الغير مصرية .

"مبتسما في مرارة": أنا أبكي كوني ضعفت وخفت لدرجة أنني تبرأت من نسبي لمصر،تنكرت لها، كيف أخونها؟

- أنت لست خائنا، الخونة هم من نزعوا الحب من قلوبنا وحاولو أن يغرسوا في عقولنا أن الوطنية هي أن توقع صكا يوكلهم بنهب البلد وبملكيتهم للأرض ومن عليها ..

- لم أفكر إلا فيك طوال محبسي، كل ما تمنيته أن ألقي بنفسي في أحضانك، أنت وطني دليلة، بل أنت الدليل على أني مصري، أن دمي ولحمي من تراب هذا البلد .

- أنا لا أهتم إلا بك، لا يهمني إلا أنت، أنا عدت إلى الحياة بعودتك .

- فتشتُ عن الأمان فوجدتني أتجه إليك كطفل تاه عن أمه..

- أنا امك وأختك وحبيبتك .

- خذيني في أحضانك وابعديني عن العالم .

***

٧٥

طرقات على باب حجرة وكيل النيابة، يدخل شرطي ويخبره بوجود د. هبة بالخارج، فيأمره بإدخالها..

- أهلا دكتورة .. تفضلي بالجلوس.

- ما الأمر جاءني ذلك الاستدعاء؟

- نعم .. هناك شابان طلبا حضورك لضمانهما .

- من هما؟

- أحدهما اسمه محسن والآخر سامر، قد تشاجرا مع أمين شرطة وتعرضا له بالسب والإهانة لولا أنهما طالبان ، وحرصاً على مستقبلهما سأمنحهما فرصة.

أحضِرا الولدان.

يدخل سامر وخلفه محسن وفي عيني كل منهما نظرات تحمل معاني الانتصار والزهو .

- ماذا فعلتما؟

- لقد سخر أمين الشرطة من مظهرنا واتهمنا بالشذوذ، فلم نتمكن من كبح جماح غضبنا، خاصة بعد أن سب أمهاتنا فما كان منا إلا أن بادلناه السب والضرب..

ورغم أننا نستطيع بأسمائنا الخروج من هنا إلا أن مبادئنا لا تسمح باستغلال سلطة أسرتينا، فآثرنا استدعاءك لتضمنينا..

- هل تقنعونني أن أسرتيكما لم يشعرا بغيابكما؟

- لقد اعتادوا على ذلك..

- لكنكما ستتعرضان للمحاكمة لضرب موظف أثناء تأدية وظيفته، والموظف هنا من الشرطة، أنتما في مأزق .

تحدثت هبة مع وكيل النيابة لإقناعه بالتصالح مع أمين الشرطة، وأن يقوما بالاعتذار له خوفاً على مستقبلهما، إلا أن أمين الشرطة رفض وصمم على حقه القانوني، مما دفع هبة للكشف عن شخصية الشابين، وبمجرد سماع اسم الأسرتين وافق أمين الشرطة على الصلح وخرجت هبة ومعها محسن وسامر .. أقلتهما بسيارتها وأثناء الطريق تحدثت إليهما..

- أتمنى أن تكفا عن إقحامي فيما تقومان به من شغب وتمرد، اعقلا، ليس معنى المعارضة أن نهين من يقومون بحمايتنا، ولا أن نهدم بلدنا، تستطيع أن تعارض بشكل إيجابي، بشكل بناء.

- وكيف ذلك يا دكتور؟ نحن في مجتمع يعبد القوة والسلطة.

- محسن .. سامر، لقد سببتما لي من المشاكل ما يكفي، فأنا في أزمة مع الجامعة بسببكما، كفا عن تصرفاتكما الصبيانية وانضجا.

- مشكلة مع من؟ أخبرينا يا دكتور.

- لا يهم فأنا قادرة على حل أي مشكلة معي، فقط أفيقا.
أوصلت هبة سامر وأنزلته أمام بيته، وواصلت الطريق مع محسن..

- ما هي المشكلة دكتور هبة؟

- لا شئ محدد يا محسن، مجرد تواجدكم بمكتبي تم رفضه من قبل إدارة الجامعة.
(سرح محسن وأشعل سيجارة ثم واصل حديثه:

- أعتذر عن أي مشكلة أو ألم سببناه لك.

ثم التفت إلى هبة متأملا وجهها، وفي عينيه جمل غير مرتبة وغير مهندمة كما مظهره، ثم ردد بعض أبيات للشاعر الروسي "ألكسندر بوشكين"

- صوتي الذي يضفي عليه الحب

رقة وشوقا

يزعج سكينة الليل الحالم

في حين تحترق شمعة ناحلة شاحبة

قرب سريري فتذيب نفسها

- من قلبي تنطلق أشعار متسارعة

على هيئة جداول من الحب،

تترنم، تنشد، ثم تتمازج،

تنطلق مليئة بك، زاخرة بشوق متعاظم، يخيل إلي أنني أبصر عينيك تشعان في الظلمة وتلتقيان عيني

أرى ابتسامتك، وأراك تتحدثين إليّ وحدي هامسة:

- أي صديقي!

يا أعز الأصدقاء

أحبــك

أنا لك، ملكك

التفتت هبة إلى صوته وقد جذبتها موسيقى ما يردد من كلمات، رغم أنها لم تفهم القصيدة لأنها باللغة الروسية

- أنت؟

- أنا ماذا؟

- أنت من يرسل لي تلك الرسائل؟ لا أصدق، أنت آخر من ظننت!!

- نعم أنا غارق في هواك منذ أول لحظة، أنا الذي لم ينتظم طوال خمس سنوات بأي محاضرة، لم أنتظم إلا بمحاضرتك فقط لأراك، كنتُ كمن يصلي في محراب وقِبلته أنت .

- كفى محسن ..لا تنس الفارق بيننا .. أنا أستاذتك.

- أنت امرأة وأنا رجل، كلانا تربى وتعلم في ثقافة لا ترى في السن أي عائق أو حائل يمنع الحب.

- حب؟ إنه وهم وليس حبا .. أنت تبهرك المحاضِرة هبة وليست هبة المرأة.

- تتحدثي على لساني، هنا أنا وأنت، لتنسي هبة داخل رواق الجامعة، فقط اخلعي عنك أية ملابس رسمية وارتدي أنوثتك .

- وإن نسيت أني دكتورة هبة فلن أنسى أنك محسن الشاب الذي لا يعي بعد معنى المسؤولية، ابن مدلل لأسرة ثرية وغارق في أنانيته.

- أخطأت هبة .. أخطأت، من فضلك أنزليني هنا لقد اقتربت من بيتي وسأواصل الطريق وحدي وبوشكين.

- القصيدة لبوشكين؟

- نعم، إنها " الليل" .. تحياتي وشاكر لتعبك

٧٦

تتجه ڤاريم إلى مركز الشرطة لتلحق بطاهر قبل ترحيلة ومعها محامي الأسرة، تقابل وكيل النيابة لتسمع منه التهم الموجهة إلى فايز وطاهر، تطلب من المحامي التركيز على مدى تورط طاهر، يطمئنها وكيل النيابة بأن طاهر خرج ولم تثبت عليه أي من تلك الاتهامات المتورط فيها فايز، تحمد الله وتشكر النائب وترافق المحامي إلى الخارج، تتصل بطاهر في سيارتها إلا أنه لا يرد، تحاول الاتصال عدة مرات إلى أن أجاب..

- طاهر

- نعم

- أين أنت؟

- هل كنت تتصورين أنني في السجن؟

- أعلم انك خرجت، كنتُ بقسم الشرطة للاطمئنان عليك.

(يرن ضحكة ساخرة تحمل الكثير من المرارة):

- على رأي المثل يقتلون القتيل ويسيرون في جنازته .

- أتمنى أن ألقاك لأفهمك ما حدث .

- وأنا لا أتمنى أن أراك فكفاني ما لحق بي بسببك، زوجتي طلبت الطلاق ومنعت عني أولادي وطُردت من عملي.

- لا تحملني أخطاءك فأنت الذي ورط نفسه مع نصاب.

- تمام، وأنا لا أريد الكلام. (يغلق الفون)

- غبي !! (تقولها في عضب)

يشير عليها المحامي، الذي رافقها في سيارتها، أن تعوضه بأن تتوسط له لدى أخيها بأن يجد له فرصة عمل تعوضه عن فقده لوظيفته حتى يتمكن من إعالة أسرته.

ترحب بالفكرة وتواصل قائلة: وسوف أتصل بزوجته لعلني أرمم ما حدث بينهما من شرخ كنت سببه.

- لا تحملي نفسك أخطاء غيرك فزوجها وقع تحت تاثير وساوس الشيطان فايز، واستحق عقابه.

- نعم معك حق لكنه ندم ولابد أن نتعلم أن نغفر ولا ننصب المقاصل لمن ارتكب هفوات ولنوفرها للقتلة.

تصل ڤاريم إلى الشركة التي بها مقر أخيها سامي وبصحبتها المحامي، تركب المصعد وتترك المحامي يتجه إلى مكتبه وتمر على أخيها لتحدثه عن طاهر،

ويعدها بأنه سيقوم باللازم، تشعر بالراحة وتقبله وتنصرف لحاجتها إلى الراحة ..

- هل ستسافرين إلى الإسكندرية اليوم؟

- لا.. كنت في حاجة مُلحة للسفر ولكني شعرت بالإرهاق سأتجه إلى المنصورية وغداً ساسأفر.

- سألحق بك فمنذ شهور لم أتناول معك الطعام وفرصة نتسامر، سأكون اليوم OFF لأجلك

- سأنتظرك مع بيرو وجدتي، سلام.

- سلام حبيبتي.

*****

٧٧

توالت الصُّدف القدرية والمتعمدة من محسن ليلتقي بهبة، أحياناً يصادفها في المسرح وأحياناً في الكافيه المفضل لها، وفي أحايين كثيرة في الجامعة، لم تعد تغادر فكره أو قلبه، وصار كما المدمن، يفاجئه الصداع غير المحتمل إن فكر في نسيانها، لكنها غيرت فيه الكثير رغبة منه أن ينال رضاها، تخلى عن شرب الفودكا وارتداء الأساور الجلدية، وهندم شعره الذي كان من أهم ما يميزه بالجامعة "الكيرلي أفريكانو"، لكنه لم يستطع أن يتخلى عن نظارته السوداء، سألته هبة ذات مرة عن سر تمسكه بتلك النظارة ليل نهار، فكانت إجابته:

- صدقيني لا أعرف، لكني أشعر بالأمان خلفها، بالهدوء، ضوء النهار يزعجني، يشعرني بالقلق..

- لكن حديث العين أصدق إنباء من اللسان .

- لساني لا يكذب أبداً دكتورة؛ لأني تربيت على أن الكذب منقصة لا يجب أن تكون مع الرجل..

- لكني أفضل أن أرى عين محدثي.

- لأجلك سأخلعها.. (رفعها عن عينيه - في تردد وكانت يداه ترتعشان وكأنه تمنى أن يعيق قراره أي تدخل

خارجي - لترى هبه عينيه، كانتا جميلتين برموش كثيفة ومسحة حزن لا تغادر مقلتيه، ولكن كان لون بياضهما مختلطاً بشئ من الحمرة وتعكيرات بنية تنم عن عدم النوم والأرق وربما عن اعتياد السُّكر..

- ها، ماذا ترين؟

- أرى عينين تشعان ذكاء وجمالا لولا أن صاحبها يترنح ليلاً من السكر..

- أنا أشرب رغبة في أن أنسى اسمي وعائلتي، أريد أن أنسى أن أبي متورط في الظلم مع زبانية الحكم.. لا أصدق أنه تآمر لقتلي ..

- قتلك؟

- نعم قتلني وقتل أحلامي بل وتآمر على وأد مستقبلي حين قتلها..

- قتل من؟

- نائلة

- من نائلة؟

- حبيبتي، كانت حلماً منحته لي السماء وكاد يتحقق لكنها كانت من المعارضين والناشطين ضد فساد النظام، تم اعتقالها بعد أن علم أبي بحبي لها ورغبتي في

الزواج منها، فجأة اختفت لتجدها أسرتها في المشرحة، قُتلت من التعذيب، وللمصادفة يرد اسم أبي، أقسمت أن أنتقم لها ولكل شاب أجهضه حقه في الحياة والاستمتاع بالحرية في بلادنا، حرقت سيارته وقمت بعمل محاضر ضده، لكن ينتهي كل ذلك بلاشئ فهم أصحاب البلد، ينتهي الأمر بان ألقي بي في مصحة لأكثر من ستة أشهر لولا تدخل أمي وبكاؤها الذي كاد أن يقتلها لما عفا عنى وأخرجني..

- آسفة.. لم أكن أتصور أنك عانيت هكذا.

- لم أعد أحتمل النور، لم أعد أحتمل الصوت العالي، لا أطيق الزي الشرطي ولا أي خطيب اصطفى نفسه للحديث عن الفضيلة وامتلاكه لخارطة الصراط المستقيم . وأقسمت أن أحرمه مني كما حرمني من نائلة.

- هل لاحظت أنك كنت تتحدث بلا نظارة؟!

(وكأنه شعر فجأة بالضوء الشديد يلف يده ويرفعها لتغطي عينيه ليمنع الضوء عنهما، فوضع النظارة)

- ليتني ما لفت نظرك ..

(ترتسم ابتسامة حب على شفتي محسن)

- هل أنا شبيهتها؟

- لا.. لكنك تحملين كل ملامح الحلم .

- لا أفهمك.

- أرى أنك لست بشراً، جمالك صاعق، وعقلك صاعق، حتى صوتك، أنت لا تتصورين كم من حبيب لك بالكلية، وكم من يتمنون أن يقتربوا منك كما أفعل أنا، لكن شعوري مختلف، أشعر أنك تحتاجين حمايتي ووجودي..

- أنا؟! أعتقد أنك تعكس الوضع، أرى تعلقك بي سببه أني أكبرك سناً، فأنت من يحتاج فارق السن هذا.

- ما بيني وبينك لا يتعدى أشهرا قليلة، كيف لمثقفة قضت فترة لا بأس بها بأوروبا أن يكون لها مثل تلك التقليدية في التفكير..

- ليست تقليدية محسن، بل مبادئ ولا يجوز أبداً أن نتساهل في هدم المبادئ والقيم بحجة التحضر.

- هل علاقتي بك ستهدم القيم والمبادئ؟

- أنا معلمتك، ولا يجوز أن أستغل مهنتي ومكانتي، إنه ابتزاز عاطفي مثلي مثل الطبيب النفسي والقاضي، يجب أن نتعامل وفقاً لمبادئ واحترام شرف المهنة..

- لكنني أحبك .

- ليس حباً .. أنا أعتلي منصة المحاضرة، لي تأثيري، ولي هيمنة زادها موقعي وبريقه.

- لست مراهقاً لكي تملي علي تفسيراً يخصك فقط لمشاعري.
- تأخرت كثيراً على موعد العشاء وأبي ينتظرني، على فكرة قصيدة بوشكين كانت رائعة .. سلام.
نهضت هبة وقد تركت محسن في مقعده، نهض سريعاً ليلحق بها تاركاً ثمن الغداء على الطاولة .. يقف أمام باب السيارة: ألن تقومي بتوصيلي؟
- أين سيارتك محسن؟
- أنا جئتك في المواصلات العامة، فلقد أقسمت ألا أستخدم أياً من سيارات أبي.
- تفضل ..
يركب السيارة جالسا بالمقعد الأمامي بجوارها، وقد عمه شعور بالسعادة، فمنذ استشهاد نائلة لم يبتسم إلا منذ ظهور هبة في حياته ..
تتحرك السيارة.

***

٧٨

تعود هبة إلى بيتها، تنادي على أبيها فلا مجيب، تدخل حجرته، تراه نائماً ولكنه في وضع أثار بداخلها الخوف، تقترب منه، تلمس وجهه، تلسعها برودة وجهه، تضع خدها على صدره لتسمع نبضاته، لكن .. سكت النبض، تقوم بالاتصال بنصري ليسرع باستدعاء الطبيب ويأتي معه ليكتشفوا أنه قد غادر الحياة، مات د.ثروت..

هكذا رفعتها الحياة لتناطح النجمات ثم تهبط بها كما الأرجوحة لتصدمها بالأسفلت، فمنذ أيام كانت ابنة دكتور، ثم تصارعها الأيام بأنها ابنة بلا أهل، والآن يتركها أبوها وحيدة تصارع وحدتها، وأسرته التي سوف تهجم عليها بأنيابها ومخالبها لتمزق جسدها وحياتها لتتمزق حياتها بين أركان الخلاء.

"ما الذي يحدث؟ من أنا ومن اختار لي تلك القصة؟ ومن ألقى بي في خضم هذا العالم؟ كيف تتركني أبي وتتخلى عني وأنا في قمة حاجتي إليك؟!

لقد فقدت أبي مرتين وضاعت مني أمي مرتين، وضِعت أنا منهم ومني..

***

٧٩

اجتماع عائلي في بيت د. ثروت، يحضره نصري محامي العائلة، ومعه هبة، وأبناء أعمامها، لفتح الوصية..

يجلس الجميع في حالة ترقب وتحفز واستعداد للشجار ونهش هبة، وجلست هبة في حالة حزن وصمت، لا يشغلها إلا الخروج من هذا المعترك وأن تستأثر بنفسها وصورة أبيها ثروت وأمها.

يحتسي الحضور القهوة التي أعدتها الدادة "هداية"، التي أرسلتها لها ڤاريم .. يفتح نصري الوصية ويبدأ في قراءتها ليفاجأ الجميع بأن د. ثروت قام ببيع ثلثي ممتلكاته إلى هبة، وما تبقى وصى بتوزيعه شرعياً على أبناء إخوته .

تعلو الأصوات بالتهديدات بالطعن في الوصية وتشتد النقاشات بإلقاء تهمة التزوير على نصري وتواطئه مع هبة ليقتسما ثروة عمهم، وأنه خائن للأمانة.

تجهش هبة بالبكاء وتسرع إلى غرفتها وتغلقها عليها، ينهض نصري مهدداً الجميع بإحضار الشرطة إن لم يخرجوا من الشقة في أقل من خمس دقائق.

تخرج العائلة وهي تتمتم بتهديداتها .. ينادي نصري هبة ويطلب منها الخروج ويلح عليها ..

تخرج لتجلس معه بالصالون وتطلب من "هداية" أن تحضر الغداء، حيث إن ڤاريم ودليلة قادمتان.
يطلب نصري من هبة أن تتماسك وألا تخضع لابتزازهم.
- لقد أخطأ أبي، أنا لست في حاجة إلى كل تلك الأموال، فيكفي ما فعل لي، إنه يعتقد أنه يحميني، هو يعرضني للأذى منهم، ليته ترك كل ثروته لهم، أنا لا أريد شيئاً منها، دخلي من عملي يكفيني، أرجوك نصري خلصني من تلك الكارثة، احصر ما باعه أبي لي وأعد لهم كل شئ ..
- إنها وصيته هبة، إنه يعلم مدى انتهازيتهم وجشعهم، أين كانوا حين ظل لست سنوات وحيداً وأنت بالخارج لم يسأل عليه أحد ولم يهتموا به ولم يشعروا بأي خجل حين طالبوه بأمواله، قمة الجحود والأنانية.
- إنه الشرع نصري، لن نجادل فيما حلل وحرم الله.
- لن أفعل أي شئ الآن، لنتظر قليلاً .. سأنصرف وسأتواصل معك، ونفكر فيما سنفعل.
تأتي ڤاريم في صحبة دليلة، فمنذ العزاء، منذ أكثر من شهرين لم يلتقيا، حيث حضر الجميع لمواساتها وكذلك محسن وسامر إلا مهتدى، الذي أثار الكثير من التساؤلات لاختفائه بعد الخروج من المعتقل، وأثر ذلك

كثيراً في نفسية هبة، والتي فسرته بأنه عدم اهتمام بها إلا أنها آثرت الاحتفاظ بمشاعرها لنفسها ولم تبح بها لأحد.

دخلت ڤاريم واحتضنت هبة وبعدها دليلة .. جلسن يتحدثن في الكثير من الأمور وتعمدت كل من ڤاريم ودليلة ألا تثيران الحديث عن دكتور ثروت أو جلسة فتح الوصية حتى لا تعكران مزاجها ..

فجأة سألت هبة :

- ألا من أخبار عن مهتدى؟

نظرت ڤاريم إلى هبة ثم إلى دليلة وصمتت.

دليلة: لا .. أعتقد أنه قال إنه سيسافر للاستجمام لنسيان ماحدث له ...

نظرت هبة إلى دليلة وقد ملأها الشك والأسئلة، تعمدت ڤاريم أن تسحب الحوار إلى جهتها فقالت:

- هبة لابد أن تبدئي الكتابة، فالعمل في هيباتيا على وشك الانتهاء ونحن تعودنا على كتاباتك ونريد نصاً جديدا مبهرا كما السابق، اسم هبة الكاتبة صار يتردد في الوسط كواحد من الأقلام الهامة..

- إن شاء الله، اقتربت الإجازة الصيفية وسأتفرغ للكتابة، فقط أخرج من تلك الازمة التي لا تريد أن تنقشع ظلمتها.

دليلة: أية أزمة يا دكتورة، أنا عشت أسوأ وأحلك الظروف، ما تعانينه لا شئ إذا قورن بحياتي .. الفرح في حياتي سريع الانتهاء كما قطعة ثلج فوق النار..
ڤاريم: تشبيه غريب وجميل دليلة.
- أنتما لا تعرفان شيئاً، لقد انقلبت سيارة حياتي، وأصبحت رأسي تحت وقدماي معقلتان فلا حركة ولا فرار ولا رؤية واضحة لما يحدث، ولا حتى لما حدث في الماضي .
دليلة: أنت كنت وما زلت ابنة الدكتور ثروت، وهو من الشخصيات التي تركت علامة في الأدب والتاريخ، أما أنا فاسمي واسم أسرتي لا مكان لهما من الإعراب.
ڤاريم: أنا ضد ما تثيرانه من جمل تحمل كل معاني العنصرية والتنمر، فهناك أمور لا يجب أن نحاسب عليها ولا نعيّر بعضنا البعض بها، فنحن لم نخير في أبائنا ولا ديانتنا ولا نوع جنسنا، فلا تميز لي لأني ابنة عز الدين، ولا يعيبك أنك ابنة رجل عادي، يجب أن نرتقي ونتحدث بلغة مختلفة .. أتحدث عما قدمته هبة ونجاحات دليلة وما تقدمه ڤاريم، أما بطاقة الهوية فلا يجب أن تكون وسيلة للحكم على الناس.
نظرت هبة في عيني ڤاريم وكأنها تتشبث بنقطة نور أضاءت عتمة وحدتها...

هبة: معك كل الحق ڤاريم، "أنا من صنع نفسي".
ڤاريم : جميلة تلك العبارة .. أحييك عليها.
دليلة :.. أنا أستقوى بصداقتكما .. شكرا لله أنكما في حياتي.
(دارت جملة دليلة لتتردد على لسان هبة وڤاريم)
ڤاريم: سأنصرف الآن ففي الغد يجب أن أتجه إلى القاهرة لتقديم رسالتي ومتابعتها، وسأعود في نهاية الأسبوع.
دليلة: وأنا أيضاً سأنصرف معك لأنني يجب أن أقرأ النص الذي أحضره لي الريجيسير، فلك الفضل هبة في أنك كنت سبباً لإظهار موهبتي كممثلة، وسوف يكون لي دور هام في أحد الأعمال الهامة لمخرج معروف..
هبة: لا تتأخرا عليّ..
- نحن معك دائماً ..

***

٨٠

تدخل ماجدا بيتها، فقد عادت من السوق حيث أقامت لنفسها خيمة تبيع بها القماش والحنة والعطور والكحل وكل ما تحتاج إليه المرأة من أدوات للزينة، ونجحت في أن تتربح من عمل يرضى عنه الناس، لعلها تبني لنفسها تاريخاً جديداً وينسى الناس ماجدا الغانية، هكذا وعدت (سانتينو) ونفذت وعدها.

عندما دخلت فوجئت بوجود " أركون"، سيدها الذي كان يدير عملها، بل ويديرها هي أيضاً..

- كيف دخلت بيتي؟

- هل تسمين هذا بيتاً؟ البيت هو الذي كنت قد أجرتك إياه، أما هذا فهو حظيرة .

- بل جنتي.

- وهل يعيش معك هذا القس المخبول هنا؟

- لا .

(حاولت أن تبدو قوية رغم أنها كانت ترتعش في أعماقها، فهي تعلم جيداً قسوته وقدرته على هدم حلمها)

- ليتك تدركين ما تفعلين، الرجال يزهدون في المرأة التي تعشقهم وتمنحهم جسدها بلا مقابل.

- أريد أن أعيش كما أي امرأة، أريد رجلاً لي وحدي وأن أكون له وحده..

- إنه قس، ليس لك أو لغيرك،عمله مع الرب الذي يعبده .

- أنا لا أتحدث عنه، فلقد ذهب إلى حال سبيله.

- تخلى عنك؟ كما توقعت، فلتعودي إلى بيتك وإلى عملك فالمال هو مصدر الحماية لك وليس الحب أو الرجال.

- لن أعود.

- إنها المرة الأخيرة التي أدعوك فيها أن تعودي، إياك أن تعتقدي أنك نجحت في التجارة التافهة التي تديرينها، أنا الذي تركت لك الحبل وأرخيته قليلاً حتى لا أخنق جسداً يدر ذهباً علي، لكن لن أدعك طويلاً فتمردك سيجلب الكثير من المتمردات عليّ ممن يعملن معي؛ لذا فلن أتوانى عن قتلك لتكوني عبرة فلا تجرؤ إحداهن على عصياني..

(نظر إليها وفي عينيه المكتحلتين شر!!) .. أقول لك؟ لا لن أقتلك، فهذا الجسد كلفني الكثير حتى جعلت منه إلهة يركع بين قدميها الرجال، سأقتل ذلك السانتينو.

ركعت تحت قدميه مُقبلة لهما، ترجوه ألا يقترب منه.

- إذن .. فلتعودي، فلا فتاة عندي بمثل مهارتك وجمالك، أنا من صنعتك ولابد أن تكوني ممتنة لي طول عمرك ..

- ما رأيك، سأمنحك جزءاً من أرباحي تعويضاً لك عن خسارتك؟

(قهقه عالياً حتى أنها خشيت من جنون ضحكاته)

ما تكسبينه في شهر كنت أتحصل عليه من ساعة واحدة من عملك معي، كفي عن هذا الهراء، غداً أراك عندي بالبيت في كمال زينتك، فهناك شخصية عظيمة طلبتك أنت بالذات، إن تأخرت فلتتحملي عاقبة حمقك .. تحياتي ماجدا سانتينو.

(رافعا كفه بجوار رأسه ساخرا)

سجدت ماجدا وقد ضمت كفيها واتجهت إلى السماء..

"أيا رب سانتينو .. يا من منحت أبناءك بركات تضحيتك لهم، وصلبت لأجلهم، امنحني بركتك واكفيني هذا السيد .. أنا لا أريد إلا أن أكون طاهرة لأجل حبيبي سانتينو، حتى وإن كنت أؤمن بإله غيرك فلتمنحني بركتك وتمنع عني أذاه".

بكت ماجدا ولم تكف عن توسلاتها، أملاً في أن تلقى من السماء حمايتها وحماية سانتينو. ..

٨١

واصلت هبة دورها في الجامعة، رغم الحملة التي تعرضت لها من قبل أسرة أبيها د. ثروت، وبعد أن واجهت عميد الجامعة، الذي كاد أن يعفيها من عملها لما تعرضت له سمعتها من إشاعات تمس نسبها واسمها، إلا أن العميد كان من الدهاء حيث أراد أن يستغل تلك الإشاعات لتكون دعاية لجامعته، وقد ساعده ذلك تفوق هبة ولباقتها وكثرة محبيها من الطلاب، الذين قاموا بمظاهرات مناصرة لها في موقفها من أسرة أبيها. أعادها إلى الجامعة لتلقي المحاضرة الأولى لها بعد تلك الأزمة، وكان عدد الحضور في مدرج المحاضرت لا مثيل له، فقد حضر لها عدد من طلاب الكليات الأخرى، الكثيرون كانوا يقفون بجوار باب المدرج الذي فتح على مصراعيه ليسع كل الحاضرين..

- أنا د. هبة فقط، "هبة" ابنة د. ثروت بالتبني، لا أعرف من هو أبي ولا من هي أمي، لكن أعرف أني هبة أستاذة الأدب المقارن، وأني تربيت على قيم العدل والمساواة و الجمال، طوال حياتي التي قضيتها في ظل هذا الرجل لم أعرف إلا الجمال، وحاربت معه القبح بكل صوره، الظلم قبح، العنصرية قبح، البغضاء قبح.

أنا لا أعرف من هو ذلك الرجل الذي أحمل بعض جيناته، ولا من هي الأم التي حمل رحمها حيواناته المنوية، ولكن أعرف جيداً الوطن الذي احتضنني وعلمني وخلق مني تلك السيدة الواقفة أمامكم، لن يستطيع أحد أن ينزع مني اسم ثروت ولا اسم "أسماء" من بطاقة هويتي، وأريدكم أن تتخلصوا من أي نعرة قبلية تفتش عن الأصول والأسلاف، كونوا أنتم واصنعوا أسماءكم، واسطروا تاريخكم بأمانة وشرف ولا تكذبوا كما كذب كتاب تاريخنا، كونوا أنتم ولا تحاولوا أن تعيشوا حياة ليست لكم لمجرد أن يرضى عنكم المجتمع..

لا تنظروا إلى كبوات تجاوزتموها وانظروا دوماً إلى الأمام، أنا تخلصت من أوجاعي وقد تصورت أنها سوف تخل بشرفي، وأدركت أن الشرف هو ما ينفع الناس ويخلد بالأرض، أن تترك بالأرض بذرة يأكل منها الإنسان والطير وألا أتسبب في وجع إنسان.

إنها محاضرتي الأولى في عامي الجديد هنا بالجامعة، لا تسرق .. لا تقتل، لا تخُن .. لا تعير أخاك بلونه أو جنسه.

(يصفق كل الطلاب بلا توقف، تخرج دمعات من عيني هبة ولكنها دموع بزي الفرح والنصر)

"أنا هبة ربيبة د ثروت، وأمي السيدة أسماء .. ممتنة لهما، فهما من صنعا مني تلك المرأة الصامدة أمامكم، لن أفتش عن أبي أو أمي، فيكفيني اسمي وفعلي.
تخرج هبة من باب الجامعة وحولها عدد من الطلاب يصحبونها حباً ورغبة في التزود من حديثها، تقف أمام السيارة وكان بالاتجاه الآخر (موتوسيكل) لشاب يرتدي خوذة حمراء، يخرج من جيب (السويتر)، الذي يرتديه، مسدساً، يطلق النار على هبة، لتسقط مدرجة في الدماء.

***

٨٢

إنه يناير شهر الثورة، تشتعل القاهرة والإسكندرية والسويس في محاولة تتشبع بالتفاؤل والحب لهذا البلد الذي عانى اهله الغربة وهم في أحضانها..

تحركت ڤاريم بسيارتها في طريقها إلى التحرير، وكان بصحبتها محسن وسامر، عند إشارة المرور تجاورها سيارة لأسرة يحمل أفرادها علم مصر ويرفعون صوت أغنية شادية "يا حبيبتي يا مصر"، تذرف عينا ڤاريم بالدمع، يشير لها قائد السيارة بأن تتقدمه، ترفض وتدعوه بأن يتفضل هو أولا..

تعجبت ڤاريم من هذا الرقي في التعامل الذي لم تعهده من المصريين خاصة أثناء زحام المرور.. بعد قليل تشاهد إحدى محطات البنزين تلقي بالمياه المعدنية على المارة وتبعث بها إلى السيارات، بعد قليل تفاجأ بقنابل مسيلة للدموع، تتعطل سيارتها، يأتي إليها عدد من الشباب يرفعون السيارة ويدفعون بها إلى أحد الشوارع الجانبية ..

تتحدث مع محسن وسامر: هل لاحظتما ما فعله الشباب؟ هؤلاء المصريون أحفاد تلك الحضارة العريقة ظهر معدنهم حين شعروا أنها بلدهم .. شهامة أبن البلد الذي لايتوانى عن مساعدة ملهوف ولا عن مناصرة

إمرأة .. هذا هوالمصري الذي في كسب لقمة العيش والهروب بجلده وأبنائه من الظلم ..

سامر :فعلا، أنا رأيت أثناء تلك الثورة ما لم يصدقه أحد، لقد شاركتهم غسل الشوارع وكنس الأرصفة، بل وتشاركنا الطعام..

تنزل ڤاريم ومعها محسن وسامر بعد أن قامت بركن سيارتها بجوار مجلس النواب، وتوجه الجميع إلى الخيمة التي أقاموها بالميدان..

**

٨٣

تخرج ماجدا في طريقها إلى تجارتها لتجد جمعاً من الناس حول شجرة، وصياح من النساء، وبلبلة هنا وهناك وجلبة، تحاول أن تجد لها ممراً للعبور لمشاهدة ما يجري، ترى على البعد رجلاً معلقاً بجزع شجرة وتسيل منه الدماء، تتصاعد ضربات قلبها، وهناك بعقلها صوت ينكر أنه هو، وقلبها يخفق وجعاً ورعباً، لتتأكد مخاوفها، إنه هو سانتينو .. تصرخ، ترتفع صرخاتها، تلطم خديها، تمسك بساقيه في محاولة يائسة لأن ترفعه لتنزل به أرضاً، تسقط مغشياً عليها.. يرفعها بعض المارة على أحد الأرصفة، تحاول إحدى السيدات إفاقتها .. تفيق ماجدا لتجري مرة أخرى نحو الشجرة التي صلب عليها سانتينو .. تقبل قدمه، تبكي، حتى جفت من عينيها الدموع .. ينفض الجمع وتظل وحيدة مع جسده...

- سانتينو .. أرجو ان يكون سمعك حاضراً، فأنا أعرف أنك تسمعني، أيا حبيبي، نم في سلام فأنت في صحبة المسيح كما تمنيت، بل هاأنت قد صلبت مثله لتمنحني الخلاص، وتمنح الأرض الحب النقي الذي يترفع عن الشهوة .. كن هناك بالسماء بجوار نجمة الليل،

سأصحبك بعد قليل .. أحرقت هيباتيا البغضاء والكراهية، وقتلك الحب.

تنظر على يمينها لترى أركون واقفاً وقد علت وجهه نظرة النصر، متأبطاً ذراعيه .. تقبض بيدها حفنة تراب وتلقي بها في وجهه، وتسير في هدوء إلى باب الكنيسة تطرق أبوابها، تفتح على مصراعيها، تدخل وقد ألقت بكل ملابسها على الأرض .. يهرع أحد خدام الكنيسة ليلقي على جسدها عباءته ويغلق أبواب الكنيسة.

٨٤

لم يفارق محسن المستشفى التي كانت تعالج فيها هبة، وكان يتناوب زيارتها مع الكثير من تلاميذها .. زادت حادثة هبة من حِدة الغضب بداخل محسن ضد النظام ومن رجالاته، وخاصة أبيه، وكان يتنقل بين الميدان في الإسكندرية وميدان التحرير بالقاهرة والمستشفى، وقد أقسم أمام أمه، حين زارها يوم ميلاد أخته جهينة، بعد حادثة هبة استقبل الأسرة بالسب واللعن والتهديد..

- أنا لم آت للاحتفال بسخافاتكم، جئت لأعلِمكم إن حدث مكروه لهبة فلن ينجو منكم أحد، أنتم أناس عالة على هذا المجتمع، بكم ساد الفساد والظلم..

- كفى محسن! من هي هبة التي تهددنا لأجلها؟ وماذا حدث لها؟ هل هذه هديتك لأختك؟!

نظر محسن إلى أمه وقد فاض في عينيه الحنق والغضب، كاد أن ينفجر في وجهها، لكن حبه لها ألجم لسانه واستدار منصرفاً..

سافر عائداً إلى المستشفى، ولكن لم يسمحوا له بالدخول، فنام على الرصيف المقابل وقد التحف البالطو على رأسه.

في الصباح، هرع إلى المستشفى ليطمئن عليها، توجه إلى الطبيبة المسؤول عن الرعاية المركزة ..

- من فضلك طمنيني ..

- أنت من تبرع لها بالدم؟

- نعم .. من فضلك طمنيني..

- إن مر اليوم على خير ستنجو إن شاء الله .. فلتدعو لها .

نظر محسن إليها من خلف الباب وعينيه تملؤهما الدموع، يلتفت خلفه حيث يد امتدت لتلمس كتفه مطمئنة له وشاكرة، كانت يد ڤاريم بصحبتها دليلة ونصري.

****

٨٥

تتجه ڤاريم إلى بيتها بالمنصورية، تلاحظ جلبة وحركة لا تتوقف من الخدم، وحقائب تهبط إلى مدخل الفيلا، تسأل ما الأمر، فلم اتجد رداً، تصعد إلى غرفة جدتها فتعرف أنه تم حجزها بإحدى المستشفيات الخاصة، حيث سقطت مغشياً عليها حين دخل على الفيلا رجال الشرطة .. تسأل عبير عم حدث..

- لقد قرر أبوك أننا سنسافر إلى المملكة المتحدة، فالأمور لا تطمئن، والبلد في حالة من الجنون، فالجميع فقد عقله ولا يجب أن نبقى هنا، فحياتنا في خطر..

- أين سامي؟

- سافر إلى شرم الشيخ ليهيئ لنا فرصة الهروب .

- وأين أبي؟

- ذهب ليطمئن على والدته ويجهز الأوراق ليصحبها للعلاج بالخارج، هيا ڤاريم لقد رتبنا لك حقائبك، لا وقت لدينا ..

- أنا لن أترك بلدي، لن أهرب .. أنا لست من هولاء اللصوص الذين نهبوها وهربوا.

- ابنتي لا وقت لإقناعك فالأمور خارجة عن السيطرة ويسيطر على الجميع الغضب، وأذن الغضب لا تعقل ولا تفهم..

- لا يا أمي لن أهرب، أبي كدّ وتعب ولم يسرق أو يستولى على شئ ليس من حقه، فلقد كان عصامياً..

- يا ابنتي، الثوار لن يسمعوا ما تقولينه، أي رجل أعمال تعامل مع النظام سوف يكون سيف الاتهام ملوحاً بوجهه، ألا تقرئين التاريخ وما حدث بالثورة الفرنسية بل وثورة يوليو؟ إنهم سيقتلون كل من تعاون مع النظام حتى لو كان عصامياً..

- لا .. الثورة أشعلها الظلم، وخرجت لتعيد ضبط ميزان العدل، أعتقد أن حكماء الميادين سوف يتولون دفة الأمور وسوف يثبتون دعائم الديمقراطية التي دفعنا في سبيلها دماء الشباب والعجائز والأطفال، إنهم عقلاء لن يظلموا، فلقد ذاقوا الظلم، ستتم محاكمات وسينال كل ظالم ما يستحق.. فالقضاء حر ولن يُسيس.

- يبدو أن إقناعك لن يكون سهلا، سأتصل بأبيك.

**

٨٦

حضر مهتدى إلى القاهرة، مركز الثورة، لينضم إلى جموع الغاضبين، الحالمين بالتغيير وعودة مصر باسمة، متطلعة إلى غد أفضل .. صعد، وبجواره محسن وسامر، المنصة وسط ميدان التحرير مخاطباً الثوار، مسديا النصائح: لن نغادر الميدان حتى يزول الظلم بزوال قائده، نريد محاكمات عادلة، نريدها دولة ديمقراطية يسودها القانون ويحترم الجميع الدستور.. مصر ليست إرثا، وشعبها ليسوا عبيدا..
وأرضها ملكا للجميع، نريد أن يسود العدل والمساواة، شعارنا "العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.
ترتفع الأصوات التي تسب الرئيس وزوجه، ينهرهم مهتدى: لا لن نكون جاحدين، ولن ننسى إنجازات قامت بها تلك السيدة، فحسبها المكتبات التي أرست دعائمها في كل العشوائيات وكل أنحاء مصر، ومكتبة الإسكندرية خير شاهد، لنكن منصفين، إياكم والظلم.
تتعالى الأصوات منها الرافض لدفاعه ومنها المؤيد..
يتدخل مهتدى ومن معه: دعونا نتخلى عن أحقادنا وعداوتنا، نحن نريد أن يسود القانون ولن نترك لغضبنا العنان ليقتلنا معهم.
ينزل مهتدى عن المنصة ليعلو صوت محمد منير:

"إزاي ترضي لي حبيبتي، أتمعشق باسمك وأنت، عمالة تزيدي في حيرتي.."
يحتضن يد دليله ويسير في طريقه ..
***

٨٧

يخرج فايز مع من خرجوا من السجون، ليظهر بعد ذلك على شاشة التلفاز يجسد شخصية الشاب الذي تعرض للظلم من رجل أعمال استغل نفوذه وزج به إلى ظلمات السجن، بعد أن تم تلفيق عدة تهم إليه. يتزعم بعد ذلك أحد أجنحة الميدان ويلتقي بثاريم..

- أنت ؟

- نعم أنا. . ابنة عزالدين ..

- تدور الأيام وتدور الأرض لنلتقي، أنا أعتلي المنصة وانت تتأرجحين بين السماء والأرض .

- أنا ثاريم، وأنت ما زلت النصاب فايز

- انتقي كلامك وإلا سأجعل منك أول مصلوبة هنا بالميدان، يكفي أن أرفع صوتي باسم أبيك.

- أنا لا أخشى أحداً لأنني هنا منذ اندلعت الثورة، أما انت فخريج السجن لتهمة النصب على النساء، العار يكلل مساعيك وتاريخك.

- خريج السجن هذا معه الثوار وأنت مع النظام، لمن الملك اليوم؟!

- أنت لص وستظل لصا ولن يغسلك حتى ماء المحيط من تاريخك القذر.

- إذن فأنت قد حكمت على نفسك..

يتجه فايز إلى الخلف ليعتلي المنصة، يمسك المايك ويشير إلى ڤاريم: يا شباب، في وسطنا جواسيس ينقلون أخبار الميدان للمخابرات، هنا ابنة أحد اللصوص الكبار الذين فروا بأموالكم، ها هي ڤاريم عز الدين، لتمسكوا بها.

تحاول ڤاريم أن توضح موقفها أو أن يمنحها الآخرون فرصة للكلام، لكن يلتف حولها الثوار ويستغل بعض اللصوص الذين اندسوا بين الثوار الفرصة ويمزقون ملابسها ويلقون عليها كسرات أحجار الرصيف لتقع ڤاريم، يتخلل أحد الثوار الطريق ليصل إلى ڤاريم، ينقذها من بين أيديهم، تنهض ڤاريم وقد غلبها الإعياء وغطت وجهها الدماء، والصراخ في وجهها واللعن فيها وفي أسرتها، يجري بها ذلك الشاب محاولاً أن ينجو بها من غضب الناس، تفتح عينيها التي غطتها الدماء لتشاهده إنه علاء.رفض الهروب وتركها .

٨٨

تبدأ أحداث المسرحية، وكان في المقاعد الأمامية عبير والجدة وطاهر، فتح الستار وبدأت أحداث "هيباتيا تعود"، تتألق دليلة، التي رفضها الجمهور أول العرض، ليتعايشوا معها في أدائها لماجدا، وتتمكن من أن تنسيهم تاريخها، ويصفق الجميع لها انبهاراً بتجسيدها لدورها وقد بدا على ملامحها الحزن الشديد.

وقفت ڤاريم مرتدية هيباتيا لتلقي كلمة الختام:

"الجهل كما نبت الشوك، لا يمنحنا إلا الألم والدم، الجهل يحيل الحدائق إلى أرض يباب وحريق، حريق يبتلع في جوفه كل قيم الخير ليسود الليل.

أنا هيباتيا التي أحرقوا جسدها لتبقى روحها خالدة، ولتبقى كلماتها تطرح سنابلا وشموسا، هيباتيا التي تعاملتم معها على أنها شيطان يضل الناس ويغويهم بالحكمة، منذ متى والحكمة صارت غواية للشيطان؟!

وأنا التي رفعت شعلة التفكير والتأمل والجمال، إرث من سبقني من معلمين، أفلاطون وأرسطو..

الهرطقة أن تقتلوا العقل وتجهضوا الجمال، الهرطقة أن ترفعوا شعار العنصرية وتختزلوا العدل فيما يعود بالنفع عليكم ويحافظ على بقائكم ليناصر طبقيتكم .. لا ولن أموت طالما كانت الحياة".

يغلق الستار الذي رسم على جداره صورة مهتدى، يقف الجمهور لتحية العلم وترديد النشيد القومي، وقد اغرورقت العيون بالدموع، بعضها كانت فرحاً بالثورة وبعضها خوفاً على البلد من غد مبهم، وبعضها يبكي حزنا على منصب تخلى عنهم..

***

تمت